التاريخ: بداية الشهر العاشر تشرين الأول من عام ١٩٨٢

المكان: منطقة شهرباژير التابعة لمحافظة السليمانية

الموقع: قرية بيانة حيث يتواجد الفرع الثالث والرابع للحزب الديمقراطي

obeikan.com

obeikan.com

تقدمت بخطواتي الأولى بتلك الرحلة المشؤومة وأنا أشعر بالإعياء الشديد، نتيجة الحُمى التي كانت قد أصابتني بالأمس، ومضيت بصمت مع تلك المجموعة المسلحة من پيشمرگة الحزب الديمقراطي، التي ظننت أنها ستوصلني للمكتب السياسي أو لمن سيرشدني إليهم، متتبعًا لخطواتهم التي كانت تتسارع أو هكذا تصورتها آنذاك نتيجة تباطؤ حركتي في السير بسبب المرض، لقد كانت وجهتنا نحو الجنوب وبخط مستقيم، وكان الوقت حينها ظهرًا حتى ابتعدنا كثيرًا عن قرية بيانة التي كانت مركز انطلاقنا، وعلى طول الطريق كانت تلتحق بنا مجاميع مسلحة من پيشمرگة حزبنا لم أكن قد شاهدتهم أو التقيت بهم من قبل، حتى أخذني الظن أنهم قد يكونوا ذاهبين لخوض إحدى المعارك بسبب تزايد أعدادهم...

ولأن السير كان متواصلاً فلم يكن هناك متسع من الوقت لأي منا أن يحدث الآخر الذي يمشي خلفه أو أمامه، وأستطيع الجزم بأن أي فرد منا إذا ما تأخر بسيره لسبب ما فإن ذلك لن يجلب انتباه أو اهتمام أي فرد آخر، لأنهم ليسوا من نفس التشكيل، ولو كانوا عكس ذلك فأحدهم يعرف الآخر ويمد له المساعدة عندما يحتاجها، أما هؤلاء فكل واحد منهم كان مهتمًا بأمره فقط.. وحينها راودني سؤال: هل كل هؤلاء الذين أصبح عددهم أكثر من خمسين مقاتلاً ذاهبون إلى المقر الرئيسي للحزب الذي يتواجد فيه المكتب السياسي الذي تمَّ نقلي إليه؟؟ سؤال لم أعرف إجابته حينها، وكالمعتاد تعرفت على جوابه بعد فوات الأوان، لأجد نفسي قد سقطت بمستنقع آخر.

على أية حال فإن ذلك الأمر لم يكن يستحوذ على اهتمامي نتيجة الموقف الصعب الذي كنت عليه، فبسبب المرض كانت خطواتي في السير قد أصبحت أقصر منهم، الأمر الذي تسبب أن أكون أخر ذلك الرتل الطويل خلفهم جميعًا، وإذا ما تأخرت أكثر فإني سأتخلف عنهم وأصبح وحدي في طريق لا أعرف

موقعه وإلى أين يؤدي، وبالتالي كان لزامًا عليَّ وأنا بتلك الحالة المرضية أن أهرول بين الحين والآخر، من أجل أن أبقى بوسطهم، أو أحاول أن أكون عند المؤخرة على الأقل، أما بالنسبة لهم فمعاناتهم كانت أهون بسبب تناوبهم على ركوب الدواب، وكلما اجتهدت أكثر كان المرض يتمكن مني أكثر، حتى أصبحت أشك بإمكانية مواصلتي السير معهم حتى النهاية التي لاأعلم أين ومتى ستكون.

استمر الحال على ذلك النحو حتى حان وقت الغروب، وذلك يعني أننا قد مشينا لأكثر من ست ساعات متواصلة باتجاه الجنوب بخط مستقيم، لم نخرج عنه طيلة تلك المسيرة، حتى توقفنا أخيرًا عند إحدى التلال المطلة على سهل طويل مفتوح منبسط، ومن خلفه كانت هناك أضواء إنارة تسطع من مصدرين على شكل مدن مضاءة، وذلك يعني أننا قد أصبحنا على مشارف نهاية ما كان يعرف بالمنطقة المحررة التي كانت مسرح لجولاتنا بالتنقل بأمان، الأمر الذي يعني أننا الآن بالقرب من القوات العسكرية للجيش العراقي وقوات الجاش الكوردية العملية المتجحفلة معه بتلك الفترة، وقد علمت بوقت لاحق أنها كانت مدن أقضية شاندري ونالبارس وسيد صادق.

في أسفل ذلك السهل المنبسط كان هناك شارع عامًا مبلطًا بالإسفلت، علمت فيما بعد أنه الطريق الرئيسي الذي كان يربط محافظة السليمانية بقضاء بنجوين الحدودي، وإلى يسارنا كانت هناك سلسلة من الجبال الشاهقة من خلف ذلك السهل المنبسط، علمت لاحقًا أنها سلسلة جبال سورين الحدودية. لم يكن لدي أدنى فكرة عن سبب توقفنا هذا؟ هل كان للراحة؟ أم هو الاستعداد للهجوم على أهداف معادية قد قطعت الطريق علينا؟ أم أمر طارئ أجهله وتوجب ذلك؟ أم هو الانتظار حتى يحل الليل ويسترنا بظلامه؟... أسئلة كثيرة مقلقة كانت تدور برأسي، وعلى أية حال فإن توقفنا هذا غير المعلوم أسبابه لي بالطبع، كانت فرصة ثمينة للراحة بعد تلك المسيرة الماراثونية، وتطلعت لرفاقي من

حولي فوجدتهم جميعًا يهمون بالجلوس، فانطرحت أرضًا بعد أن أحسست أن أوصالي قد تكسرت بفعل التعب الذي أنهك جسدي العليل، ناهيك عن الجوع والعطش الذي لم أحسب له حساب لكي أجلب معي زمزمية ماء أو كسرة من الخبز.

تمددت أرضًا وعيني على السماء معلقة أسألها: إلى أين المسير يا ترى؟ لقد كنت واثقًا أني إذا ما سألت أي شخص من الذين بجواري فإنه لن يجيبني بالتأكيد، لأنهم جميعًا اعتمدوا السكون وكأننا كنا مختبئين، وبالتالي قد يلاحظ حركتنا من كان ينصب لنا الكمائن بتلك المنطقة التي هي خارج نفوذ كل المقاتلين من كل الأحزاب.. وتمنيت حينها لو أن الزمن يرجع بي للماضي القريب لأكون في بيتي الذي هجرته في بغداد، لأنام بسريري وأتطبب بوجود الوالدين الذين قصرت بحقهما ولم أتحسب ماذا سيكون شعورهما بعد غيابي المفاجئ عنهم..

بعد فترة قصيرة وعندما حلَّ الظلام لم يطلب منا أحدٌ مواصلة السير، بل اندفع الجميع مهرولين باتجاه جبل سورين الذي يفصلنا عنه ذلك السهل الطويل المنبسط، فحاولت النهوض لألحق بهم، فوجدت نفسي عاجزًا حتى لأن أرفع رأسي، ولكني استجمعت قواي بحكم الضرورة وانطلقت لألحق بهم، وبعد عبورنا للشارع المبلط بالإسفلت وسط تلك السهول، وجدت نفسي بحال أفضل وأكملت معهم المسير حتى وصلنا للحافات السفلى لجبل سورين بعد أكثر من ساعة من الهرولة حينًا والسير بخطى مسرعة حينًا آخر، وعندها ابتدأ تسلقنا على الفور لجبل سورين، وكان كل واحد فينا منشغلاً بتدبر أمره فقط، حتى وصلنا إلى قمة الجبل بعد أربع ساعات مضنية من الصعود المتواصل، وقد تمكن مني التعب والعطش لدرجة الإعياء بسبب حرصي الشديد أن أكون

متواجدًا بوسط تلك المجاميع التي كانت بكامل سلاحها، خشية أن أتوه عنهم بذلك المكان الخطر وأقع فريسة بيد من هب ودب من المعادين لنا، كوني كنت غريبًا عن المنطقة وعن نفس تلك المجموعة التي كنت سائرًا بركبها، وأنا أعزلاً من السلاح..

كان وقت وصولنا إلى قمة جبل سورين هو منتصف الليل واعتقدت حينها أن معاناتي من التعب والإرهاق ستنتهي قريبًا، ولكني رأيت على مدى البصر أن خلف تلك السلسلة الجبلية جبلاً آخر هو امتداد له لم يكن يبعد عنا كثيرًا، فنزلت المجموعة التي هي كما ذكرت خليطًا من كافة المجاميع القتالية للحزب الديمقراطي، وكان النزول سهلاً قياسًا لما عانيناه أثناء الصعود وقد تركت العنان لأرجلي بالنزول، وما علي سوى الانتباه إلى الطريق خشية الاصطدام بأي عائق أمامي.

عند وصولنا إلى أسفل الجبل وجدت نفسي في وادي ضيق يفصل ما بين الجبل الذي نزلنا منه والجبل الآخر الذي يجب علينا تسلقه، وشاهدت أمرًا عجيبًا آخر لو حدثني بتفاصيله أي شخص أثق به لما صدقته لغرابة ذلك المشهد، بسبب تواجد جمهرة من المهربين وهم يبيعون ويشترون السلع بعضهم من بعض، والأغرب من ذلك رأيت شخصًا بين ذلك الحشد وقد افترش الأرض بوسطهم من أجل أن يبيع الشاي وبعض الخبز لزبائنه من المهربين أو الآخرين من المارة بذلك المكان، وقد بدا الارتياح والشعور بالأمان على كل أفراد مجموعتنا الكبيرة وكأننا قد تجاوزنا منطقة الخطر الذي كنا نتسابق وإياه، فتوزعنا جميعًا على تلك المساحة من أرض ذلك الوادي الضيق الذي كان بعرض العشرة أمتار تقريبًا، وكانت فرصة ثمينة لشرب قدح من الشاي أو أكل كسرة من الخبز، ناهيك عن التدخين الذي امتنعنا عنه طوال تلك الفترة التي مشيناها أثناء

الظلام، من أجل أن لا نكشف موقعنا للدوريات الحدودية المنتشرة بتلك المنطقة الخطرة جدًا، وكنت حريصًا بهذه المرة من استراحتنا الثانية ألا أستلقي أرضًا خشية عدم تمكني النهوض عند مواصلتنا للسير.

بعد حوالي النصف ساعة من الاستراحة؛ بدأنا مجددًا بالسير صعودًا كما توقعت لتسلق الجبل الآخر الذي يحمل نفس الاسم لأنه من سلسلة جبال سورين، حتى وصلنا لقمته عند الفجر، وانجلى المشهد أمامي لكي أرى نفسي وقد أصبحت بأعلى قمة لكل ما كان يحيط بنا من سهول منبسطة على الجانبين، السهل الأول الذي مشينا خلاله في الليل، والثاني الذي ينتظرنا عندما سننزل إليه، وآنذاك بدأ كل أفراد البيشمركة بالسير رويدًا دون خشية من أي خطر، وأصبح المجال متاحًا ليكلم بعضهم الآخر...

اغتنمت تلك الفرصة وسألت أحدهم: أين نحن الآن يا أخي؟ فأجابني مطمئنًا: لا عليك يا أخي فلقد أصبحنا بمأمن فلا تخشى من أي شيء.. فقلت له: نعم واضح أننا الآن بمنطقة آمنة ولكن أين نحن بالتحديد؟ فقال: لقد أصبحنا الآن بداخل إيران.. فقلت بدهشة كبيرة: إيران؟ فقال: نعم إيران، ألم تكن تعلم بذلك؟ فقلت: كلا لم يخبرني أحد أننا ماضون لإيران، فقال: لماذا جئت معنا إذًا؟ فعرفته بنفسي وبأمر نقلي إلى المكتب السياسي للحزب، مستطردًا بالقول: وقد أبلغني مسؤولي قادر قادر أن مجموعتكم هي من ستوصلني لمقر عملي الجديد في المكتب السياسي للحزب فقال: عندما نصل لمدينة مريوان سوف تجد من يجيبك على ما تريد أن تعرفه، أو يساعدك بالوصول للمكتب السياسي الذي أنت منقول له، فقلت: وهل تبعد مدينة مريوان كثيرًا عنا الآن؟ فقال: ابقَ معي حتى نصل إليه سويًا... شكرته وحمدت ربي أن ذلك الرجل سيكون حريصًا علي ألا أتوه وحدي ونحن في بلد رفع شعار الحرب على العراق، ومطحنة الحرب

لازالت تدور برحاها تحصد بالأرواح من الطرفين بكل لحظة، ومشيت بخطى متثاقلة شعرت حينها وكأن روحي قد قبضت لأني لم أكن مهيئًا من الناحية النفسية على الأقل لأن أتواجد بإيران، لأنها بداخل ضميري كان تمثل عدوًا للكورد قبل أن تكون عدوة للعراق، ونحن بالعام الثاني للحرب على أثر رفعها لشعار تصدير الثورة الإيرانية للعراق وتحرير كربلاء، وهو أمر أعلنته على الملأ وليس رأيًا مني أسعى به لتزوير التاريخ لا سمح الله..

قبل أن نهم بالنزول تجاه السهل المنبسط في إيران نظرت خلفي فرأيت الشارع المبلط الذي عبرناه ليلاً في العراق، وكذلك الأقضية والقصبات التي كان الضوء ينبعث منها ليلاً وهي قضاء شاندري وقضاء نالبارس وقضاء سيد صادق، وقد بدأت إيران بذلك الصباح بقصفها بمدفعيتها الثقيلة على تلك النواحي، فتنهدت بحسرة ومضيت بذلك الطريق القسري الذي فُرض علي من غير أن أعلم، وأثناء ذلك شاهدت أحد الأفراد من پيشمرگة حزبنا من غير المجموعة التي عبرت بي الحدود لإيران، وهو مرابض على إحدى الصخور المرتفعة بذلك الجبل وبيده منظار مكبر، وبحوزته جهاز لاسلكي من النوع العسكري، وكانت مهمته هي تزويد الجيش الإيراني بإحداثيات مكان وقوع قنابل المدفعية الإيرانية عند انفجارها على القرى والقصبات الكوردية في الجانب العراقي، من أجل أن تصيب هدفها وتقتل أكبر عدد ممكن من الأطفال والنساء والشيوخ من أهلنا هناك.

لقد شاء القدر أن أرى بمشاهدي الأولى بهذا البلد المعادي، ذلك الرفيق الديمقراطي الذي كان يصحح مسار تلك القذائف من أجل أن تسقط على رؤوس أهله الكورد، وهو أمر بمنتهى الخزي والعار، لأنه عمل خونة وليس عمل پيشمرگة فدائي نذر نفسه لخدمة أهله الكورد، وهو خيانة لنضال الشعب

الكوردي لأنه مشروع رخيص لبيع الضمائر بأبخس الأثمان، وأيقنت حينها من أنني قد وقعت بورطة كبيرة بعد أن أخبرني حدسي أن حالي هذا سينتهي معي بكارثة بسبب رفضي القبول بالانغماس بمثل هذه الأعمال الدنيئة، وغيرها من الممارسات المخزية التي ستردكم تفاصيلها لو طلبت مني مستقبلاً، ويعتبرها بعض الناس سابقًا وحاليًا أنها أعمال مبررة بحكم الاضطرار، ويصفها البعض بأنها تاريخ لنضال مجيد. والصحيح ليس ما أقوله أنا بهذه السطور أو من سينتقدها ويستهجنها، الحُكم لمن سيقرأها ويقيمها كحالة كانت قائمة بذلك التاريخ ولا يمكن إنكار وجودها، كحالة رخيصة يختزي منها الضمير الكوردي؟ أم هي حالة نضالية يُفتخر بها كجزء من النضال الكوردي؟.

واصلنا مسيرتنا نزولاً حتى وصلنا إلى أسفل ذلك الجبل، وهناك اعترضتنا دورية من الپاسداران وهم ميليشيا من يسموا بحراس الثورة الإيرانية، لكي تتعرف على تبعيتنا، وبعد أن تأكدوا أننا أفراد من الحزب الديمقراطي انصرفوا عنا باعتبارنا كنا من حلفائهم، وواصلنا السير بذلك السهل المنبسط حتى وصلنا إلى قرية تدعى سياناو وفيها مخفر حدودي، وهناك تأملت المشهد من حولي جيدًا فلم أجده مختلفًا عن مشاهداتي بكوردستان العراق، فهذه البقعة من الأرض هي الجزء الآخر من كوردستان المقسمة لأربعة أجزاء، وبوصولنا إلى ذلك المخفر الحدودي كان الوقت هو منتصف النهار، وذلك يعني أننا قد مشينا برحلتنا هذه على مدار أربعة وعشرين ساعة متواصلة من غير أن نستريح أو نأكل شيئًا من الطعام.

وعندها سلم أفراد المجموعة التي كنت بصحبتهم أسلحتهم الخفيفة لمشجب المخفر الذي كان بإدارة عسكرية إيرانية، عدا شخص واحد كان يرتدي الزي الكوردي باللون الأسود، وتلك إشارة تدل على أنه لم يكن كورديًا، وعند

محادثته لي بالغة العربية تبين لي أنه عراقي عربي منتسب لحزب الدعوة الشيعي العميل لإيران، الذي كان حينها متوزعًا على القطاعات العسكرية للپاسداران، أو من يسمون بحراس الثورة الإيرانية على طول جبهة القتال الممتدة من الشمال بكوردستان إيران وحتى جنوبها بمنطقة عربستان، من أجل المشاركة بالقتال ضد العراق الذي حشد كل قطعاته العسكرية على طول حدوده الشرقية المقابلة لصد العدوان الإيراني بما أسموه الفرس بتصدير ثورتهم للعراق.

هناك تسنى لي لأول مرة أن أرى أعداء العراق وجهًا لوجه، ولا أدري كيف تمكنت حينها من أن أتمالك نفسي لأكظم غيظي وأكتم انفعالي كعراقي، بعدها تمَّ تدوين أسمائنا بغرض تزويدنا بورقة دخول لكي لا تعترض طريقنا نقاط التفتيش العسكرية أثناء توجهنا إلى قضاء مريوان الحدودي، وهنا توضحت لي الصورة أكثر عن المجموعة التي عبرت بي الحدود، فجميعهم كانوا ذاهبين بإجازات لزيارة عوائلهم المقيمة في إيران كلاجئين منذ عام ١٩٧٤، وأنني الوحيد بينهم قد جئت من أجل موضوع آخر، وهذا يفسر حالة الفوضى التي كنا عليها أثناء مسيرتنا وعبورنا لإيران، فلم تكن هناك أية قيادة تتولى توجيه تلك المجموعة المسلحة الكبيرة من المقاتلين لأنهم ليسوا من تنظيم قتالي واحد، الأمر الذي دعى كل فرد منهم أن يسعى لخلاص نفسه فقط، ولو أن أية قوة معادية لنا مهما قل عددها قد اعترضتنا أثناء فترة عبورنا وما قبله لكانت الهزيمة من نصيبنا حتمًا.

استلمنا أوراق عدم التعرض لنا من ذلك العنصر العربي من حزب الدعوة العراقي الشيعي، وتوجهنا إلى كراج السفريات بقرية سياناو، كنا خمسة أفراد لأن أغلب أفراد المجموعة كانوا قد سبقونا وتوجهوا إلى مريوان، مرورًا بنفس

المخفر الحدودي، وبقي القليل منهم خلفنا لأنهم لم يصلوا إلى ما وصلناه نحن، وفور وصولنا إلى كراج السفريات استقلينا سيارة أجرة لاندروفر متجهين لمريوان، وفي الطريق الذي استغرق حدود الساعتين من السير بالسيارة مررنا بحشود كبيرة لقطعات عسكرية إيرانية، فتأملت تلك الدروع والمدافع الثقيلة وراجمات الصورايخ بعناية، لأقارنها بمثيلاتها من القطاعات العسكرية العراقية المنتشرت على طول خط الجبهة القتالية المفتوحة مع إيران من أجل الدفاع عن العراق، فوجدت نفسي كعسكري عراقي سابق منطلقًا إلى عمق أراضي العدو الفارسي من غير أن أكون مهاجمًا ضمن تشكيل قتالي، وحينها أدركت مدى عمق الانزلاق الذي غصت به وصعوبة الخلاص منه، ورجعت إلي روحي العسكرية العراقية بعد أن تخليت عن ثوبي الجديد الذي اعتقدته واهمًا أنه كان عنوانًا من أجل نصرتي لأبناء جلدتي من الكورد، من غير أن أتخلى طبعًا عن أفكاري التي من أجلها انضممت للثورة الكوردية أثناء الانتساب لتنظيمات الحزب الديمقراطي الذي تدل كافة الشواهد أنه قد باع مفهوم الثورة الكوردية لإيران بتلك الفترة، وجعل جهده العسكري منصب لخدمتهم. كما أنني كنت بداخل ضميري لم أكن أشعر بأنني قد انشققت عن الجيش العراقي أثناء التخلي عن موقعي السابق به، بل إنني قد انتقلت من موقع المسؤولية إلى موقع مسؤولية آخر، رمى بي في المستنقع الإيراني الذي بات الخروج منه أمنية صعبة المنال..

وصلنا إلى مشارف مدينة مريوان الإيرانية عصرًا، ولم يسألنا منتسبو السيطرة العسكرية عند مدخلها عن أية أوراق ثبوتية أو ما شابه، ونزلنا بوسط تلك المدينة الصغيرة، وهناك رجوت صاحبي أن يدلني على مقر الحزب الديمقراطي في مريوان، فقال إنه سيأخذني إليهم ولكن بعد أن يراجع مركز توزيع الحصص التموينية المخصصة للاجئين الكورد، ودخل إليهم وتركني أنتظره عند المدخل،

وبعدها بلحظات سألني الحارس المتواجد عند الباب سؤالاً لم أفهم معناه لأني لا أجيد التكلم باللغة الفارسية فأجبته بالكوردية أني لا أفهم ما يقول، الأمر الذي أثار الريبة بنفسه وأخذ بتفتيشي، وعندها خرج صاحبي الذي كنت أجهل اسمه وكلم الحارس بالفارسية من أجل أن يكف عني، فقال له الحارس يجب أن أخذ صاحبك هذا من أجل التحقيق معه، وبعد مداولات تركني الحارس لشأني من أجل خاطر صاحبي الذي كان على ما يبدو على معرفة مسبقة به..

طبعًا ريبة الحارس بي كانت بسبب عدم معرفتي للفارسية من ناحية ولأني كلمته بالكوردية بثقة عالية وعيني بعينه من ناحية أخرى، وذلك أمر غير مستحب أو مقبول به من قبل الفرس، على اعتبار أن المتلقي لكلامهم من الكورد يتوجب عليه أن يطأطئ برأسه لهم أثناء محادثتهم، وهذا أمر لم أفعله مع ذلك الحارس ولا مع أي إيراني آخر طيلة فترة وجودي بكل المراحل اللاحقة بإيران، اعتزازًا بحريتي واحترامًا لصفة الثائر التي أحملها، حتى وإن كان حزبنا الديمقراطي متحالف لهم.

بعدها مضى بي صاحبي إلى مكان سكنه من أجل إيصال المؤن التي حصل عليها، وكنا قد أوشكنا على وقت الغروب ومعدتي كادت تلتصق بظهري تضررًا من الجوع، لأني لم أتناول الطعام منذ صباح الأمس عندما انطلقت بسيري من قرية بيانة بكوردستان العراق، وقد وعدني صاحبي أنه سيدلني بعدها على مقر الحزب بمريوان، وعند وصولنا ألح علي صاحبي بالدخول معه لبيته الذي كان أشبه ببيوت السليمانية القديمة حيث يكون سقف البيت مفتوحًا على منور بوسطه، والذي تحيط به جميع غرف ذلك البيت التي كانت مأهولة بالعديد من العوائل الكوردية اللاجئة بإيران... كان نصيب عائلة صاحبي واحدة من تلك الغرف التي توزع على أبوابها جمهرة من النساء والأطفال، الذين كانت ملامحهم بائسة وملابسهم بالية نتيجة الفقر الشديد، أجلسني صاحبي على

صفيحة مركونة بإحدى الزوايا وكل من كان هناك أصبح ينظر لي باستغراب شديد، عدا زوجته التي انشغلت بتوبيخ صاحبي من غير أن تستقبله على الأقل بأي ترحاب بعد غيابه الطويل عنها، والمشقة التي تكبدها بذلك المشوار المحفوف بالمخاطر، معترضة على ما كان يبدو باستضافة زوجها لي، وهنا كان لابد لي أن أستوقف صاحبي الكريم الذي أينما كان يصحبني تحصل لي المشاكل، وقلت له:

– يا أخي العزيز إنني ممنون لك وشاكر لصنيعك معي، وكان الأجدر بك أن تقدر ظروفي وتدلني على مقر الحزب أول وصولنا للبلدة، كما أنني مقدر لاهتمامك بي، ولكني أرغب بالوصول إلى مبتغاي قبل أن يحل الظلام علينا، وتحصل لنا أمورًا أخرى أجهلها ولا طاقة لي على تحملها.

فرد الرجل بحياء قائلاً:

– إن مقر الحزب قد أقفل الآن وأقترح عليك أن تذهب لبيت صديقك شريف كچل مسؤول ناوچة بنچوين لأنه الآن بإجازة وهو حتمًا متواجد ببيته الآن، وهو من سيتدبر أمرك بحكم علاقاته الواسعة.

هنا تعجبت عندما علمت أن الرجل يعرفني حق المعرفة، وكذلك هو على اطلاع بمدى علاقتي الحميمة والصداقة الأخوية التي تجمعني بصديقي شريف كچل، فقلت له هل تستطيع أن تأخذني إليه؟ فقال نعم.. فانطلقنا سويًا إلى بيته الذي كان بالجهة الأخرى من تلك المدينة الصغيرة حيث يقطن الأغنياء ببيوت فخمة، ولدى وصولنا استقبلني صديقي شريف كچل بحفاوة بالغة مكلمًا إياي باللغة العربية بأعلى صوته: أهلاً بملازم سه رچل، ولدى دخولي إلى صالة الضيوف، الميوان خانه، وجدت مجموعة من ضيوفه الكورد المقيمين بمريوان وبعض من أفراد البيشمرگة من مجموعته المقاتلة بناوچة بنچوين، وأخذ صديقي شريف بتقديمي لهم وكأني أحد قياديي الحزب الديمقراطي، فتوسمت خيرًا من

ذلك اللقاء وجلست مطمئن النفس ولكن غير قرير البال، بسبب أزمة القلق الذي انتابني منذ وصولي إلى ذلك البلد اللعين، وعندها التقطت أنفاسي بعد ذلك الجهد الجبار من المشي على مدى ليلة كاملة ونهارين مصحوبين بالجوع والعطش، ناهيك عن الأعراض المؤلمة للأنفلوانزا.

بعد أن انصرف جميع الضيوف بقي خال شريف كچل وابنه كاوه ابن الثانية عشرة لأنهم من سكان نفس ذلك البيت، وعندها فاتحت صديقي شريف عن أمر نقلي إلى المكتب السياسي بمقر قيادة الحزب، وسألته عن مكانه ومدى بعدي الآن عنه، فلم يعطني جوابًا صريحًا على أسئلتي، لأنه هزليًا بطبعه وأبعد ما يكون عن الواقعية بتصرفاته مع الآخرين، واكتفى فقط بالقول: إن هناك متسع من الوقت لبحث هذا الموضوع، والمهم الآن أن ترتاح وتستحم وتبدل ثيابك ثم تتعشى وتنام بعد مشوارك الطويل من السفر، فشكرته بدعوته إياي للطعام، ولم أستحسن فكرة بقائي للمبيت في بيته لكي لا أثقل عليه، وطلبت مساعدته من أجل تأمين مكان آمن ورخيص لي بإحدى فنادق المدينة، فأبى الرجل بشدة؛ – وكان كريمًا بطبعه – أن أخرج إلى أي مكان آخر، متوعدًا إياي بأنه سيخاصمني إن تكلمت بذلك الموضوع مجددًا، فأذعنت لرغبته مجبرًا.

وبعد فترة قصيرة من المجاملات الودية أبلغني مضيفي شريف بأن الحمام جاهز بانتظاري، وللأمانة شدد الرجل علي ألا أغسل ملابسي القديمة وأتركها لأهل بيته الذين سيغسلوها لي مشكورين، وبذلك ملكني ذلك الرجل بكرمه غير المحدود، فذهبت لأستحم وكانت تلك هي المرة الأولى لي وأنا أستحم بحمام حقيقي وليس من خلال الاستحمام في الهواء الطلق أثناء جولات مجموعتنا بقرى كوردستان، منذ أن تركت بيتي قبل أربعة أشهر، لأنني حينها قد دخلت على الشهر العاشر من تلك السنة.

بعد أن عدت لغرفة الضيوف مرتديًا ملابسي وطقم الزي الكوردي الذي كنت أحتفظ به بجعبتي العسكرية؛ أخبرني مضيفي شريف كچل أن إخوتي زوجاته الأربعة قد أعددنَّ عشاءً خاصًا لي كل على طريقتها، وأخذ ينادي على كل واحدة منهم باسمها فتأتي لتسلم علينا مقدمة طبق الطعام أمامي، وكأننا بزمن ألف ليلة وليلة، فشكرتهن قائلاً لكل واحدة منهن ورأسي إلى الأرض خجلاً: شكرًا لك يا أختاه، أكلت حتى شبعت ودعيت لهم سرًا مع نفسي بأن يديم الله عليهم النعمة ويوفقهم ويجنبهم كل مكروه.

بعدها أحضروا لي أفضل ما عندهم من فراش وأغطية جديدة لأنام ليلتي بصالة الضيوف التي رافقني للمنام فيها خال صديقي شريف، وكان يعرف القليل من العربية التي لم أكن أرغب التحدث بها بتلك الفترة من أجل تقوية لغتي الكوردية التي كنت أجهل الكثير من مفرداتها، على الرغم من أني كنت أتعلم معاني ٥٠ مفردة منها بكل يوم، كما أن هنالك سببًا آخر قد استجد حينها وهو أن الكلام بالعربية كان يثير حفيظة الفرس بما يجعلهم يوجهوا انتباههم لي وهم كثيري الشكوك، حتى مع حلفائهم من الحزب الديمقراطي، لأنهم ليسوا من بني جنسهم، ولأنهم ليسوا على نفس العقيدة الدينية ولكن المصلحة جعلتهم يتحالفوا معهم.. وبالرغم من تعبي الشديد حينها لم يغمض لي جفن، فقد بقيت مستيقظًا أقلب الأمور على كل أوجهها لما حصل من انحراف خطير بوجهتي التي كانت معلومة لي على الأقل حتى الأمس القريب، وما وصلت إليه أحوالي بسبب موضوع النقل المزعوم إلى مقر قيادة الحزب، حتى وصلت لقناعة ثابتة أن هذا الدرب الذي وضعت نفسي به عن غير دراية، هو طريق لا يليق بمن هو مثلي ليتواجد بذلك البلد، الذي هو بالتأكيد ليس صديقًا للكورد ولا لكل العراقيين باستثناء أقزامهم في العراق وهم بغالبيتهم من أصول فارسية.

وإذا كان وجودي له مصلحة للكورد فكوردستان لا يأتي حقها من خلال الخيانة الرخيصة، والوفاء هو هو سمة لشعبه على مرَّ الأجيال، ولم يسبق للكورد على مرَّ التاريخ أن اعتمدوا الغدر كمنهج لنيل حقوقهم، واستنادًا لكل تلك المبادئ والأفكار الوطنية والقومية وجدت نفسي أنني قد خنت أهدافي التي من أجلها تركت بيتي وسكنت في العراء واسترخصت حتى روحي في سبيلها، الأمر الذي جعلني حينها أشعر أن ضميري أخذ يجلدني بقسوة حتى تمنيت ساعتها لو أنني إنسان معدوم الضمير، أو جاهلاً بالحقائق التي تجري من حولي محملاً اللوم بذلك على والدي رحمه الله، الذي رباني على التمسك بقوميتي من جهة وبالتفاني والإخلاص لوطني من جهة أخرى، وهما أمران على ما يبدو من الصعب التوفيق بجمعهما سويًا في بوتقة واحدة بظل ذلك الظرف تحديدًا أثناء وجودي بإيران، أو على الأقل أنها أفكار وقيم تتعارض وسياسة الحزب الديمقراطي المعلنة على وجه التحديد، باعتباري كنت أنتمي لصفوفه بتلك المرحلة..

عندها توصلت لحل وسط أتصالح به مع ضميري لكي أرضيه ويكف عن تعذيبي، فعاهدته بأنني لن أخون أو أتهاون مع حقوق شعبي الكوردي، أو الانضواء اختياريًا أو إجباريًا تحت لواء الفرس للقتال بالضد من بلدي العراق وأهله بكورده وعربه، وعندئذ هدأت نفسي وارتاح بالي بعد أن عرفت هدفي وحددت طريقي الذي كان ضبابيًا ومتناقضًا داخل نفسي، واضعًا خطة بكيفية التعامل مع محيطي الجديد من غير التخلي عن ما أقسمت عليه وأشهدت عليه ربي، وذلك من خلال التصرف بحذر بتعاملي مع الإيرانيين من الفرس حتى تأتي الفرصة المناسبة التي تتيح لي تصحيح مساري من خلال الرجوع لكوردستان العراق، وعندها سأقرر من جديد ما سيكون موقفي من ذلك المسلك الذي كان الحزب الديمقراطي ينتهجه بتلك الفترة، الذي باعتقادي وكما كانت كل الوقائع تشير بأنه قد خرج عن مساره بخدمة كوردستان وحقها المسلوب.

بتلك اللحظة فقط قرت عيني وهنئت بنومي بعد تلك المكاشفة الصريحة مع ضميري وهو الرقيب الذي لا ينام والشاهد على كل التصرفات والنوايا.. وفي صباح اليوم التالي بعث مضيفي شريف كچل ابن خاله كاوه معي من أجل إرشادي إلى مقر الحزب الديمقراطي فرع مريوان، فأخذني إليه وكان على شكل مكتب صغير وسط الدكاكين بسوق البلدة، وهناك التقيت بشخص يدعى حمه سور حسين وكان ممثل الحزب والمسؤول عن توزيع معونات مفوضية اللاجئين في الأمم المتحدة، فأبرزت له كتاب نقلي إلى المكتب السياسي من أجل تسهيل مهمة التحاقي به، ولكنه أخبرني بأنه غير معني بمثل تلك النشاطات الحزبية، باعتبار أن واجبه كان محصورًا بإدارة شؤون اللاجئين فقط، فسألته عن الذي هو مختص بتلك النشاطات؟ فقال إن هناك شخص مختص بالأمور الحزبية اسمه أزاد، وهو يدير عمله من بيته، فسألته أن يدل كاوه على العنوان لكي نصل إليه؟ فأعلم كاوه بمكان بيته ومضينا سويًا إلى بيت أزاد من أجل إتمام الموضوع، ولم نجده ببيته فأقفلنا عائدين إلى بيت مضيفي لإبلاغه بالأمر، لكنه لم يهتم وقلب الموضوع مزاحًا وقال: لماذا تريد أن تغادرنا بهذه السرعة، ابقَ معنا لبعض الوقت إن كان لابد لك من الرحيل عنا، ثم نادى بأعلى صوته كعادته بكل مرة على نسائه الأربعة من أجل إرسال طعام الغذاء لنا وللضيوف الذين كانوا جالسين معه قبل قدومي مع ابن خاله كاوه.

قبل إحضار الطعام زاره شخص من الپاسدار كان يرتدي اللباس العسكري اسمه صادق، وهو شاب يافع بعمر السابعة عشر، وقد علمت بوقت لاحق أنه ابن لأحد الملالي المعممين الذي كان يشغل منصبًا قياديًا بمريوان، وعندها تباحث ذلك الشخص مع مضيفي بأمور تخص التجهيزات العسكرية التي يحتاجها مضيفي لمجموعته المقاتلة بناوچة بنچوين من أجل تأمينها لجموعته.

عند انتهاء محادثتهم العلنية استدار مضيفي نحوي وكلمني بالعربية مناديًا إياي بملازم سه رچل من أجل أن يعرفني على صاحبه الپاسدار الإيراني، الذي بدوره استغرب من ذلك المشهد، خصوصًا بعد أن علم بأنني من بغداد، فسلمت عليه بصفة العمومية مصحوبة بابتسامة مجاملة زائفة، وكنت حريصًا على ألا أظهر اشمئزازي منه، فأخذه الفضول الاستخباراتي ليسألني جملة من الأسئلة عن بغداد؟ فأجبته على مضض من أجل التهرب من أسئلته تلك، وبعد الانتهاء من تناول طعام الغداء، غادرنا ذلك الپاسدار مع بقية الضيوف، وحينها عاتبت صديقي شريف كچل لأنه كلمني بالعربية مدعيًا بأني ملازم على مسمع من ذلك الپاسدار الإيراني، فقال لا عليك فهو مجرد صبي ولا يستطيع أن يمسك بأي أذى وأنت بضيافتي.

في اليوم التالي ذهبت وحدي إلى بيت المدعو أزاد من أجل كتاب النقل، فوجدته هناك ودعاني بالدخول لبيته، وبعد أن اطلع على محتوى الكتاب سلمني مبلغًا من المال بالعملة الإيرانية بما يعادل ٥٠ دولارًا، التي قيمتها بالدينار العراقي حينها سبعة عشر دينارًا، ووقعت على استلامها منه، ثم قال لي: هذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك، أما موضوع نقلك للمكتب السياسي للحزب فهو أمر يتكفله أحد رفاقنا في مريوان، وهو مسؤول التنسيق مع السلطات الإيرانية من أجل إصدار وثيقة سفر، أو ما يسمى دفتر چك لأي رفيق يروم بالسفر إلى بقية المحافظات الإيرانية، فسألته: في أية محافظة يتواجد مقر القيادة ومكتبها السياسي؟ فقال ستعلم بذلك عندما يسلمك الرفيق الذي سيستحصل لك على وثيقة السفر، فسألته عن اسم هذا الرفيق ومكان تواجده؟ فأخبرني باسمه، ومسحه الزمن من ذاكرتي ولم أعد أتذكره الآن، مضيفًا بأن ذلك الشخص لم يكن لديه مقر أو مكتب ولا يعرف عنوانًا لمسكنه، وما دمت ضيفًا على كاك شريف كچل فهو يعرفه وبإمكانه أن يأخذك إليه، فشكرته ورجعت إلى بيت

مضيفي شريف كچل لأخبره بما حصل، فقال: إن هذا الرجل غير موجود الآن بمريوان لأنه ذهب للعاصمة طهران بمهمة خاصة، والمرجح بأنه سيعود بعد أسبوعين، فقلت ما عساي أن أفعل حتى يرجع صاحبنا هذا؟ فقال ممازحًا: تجلس معنا كأي فرد من العائلة.

عندها انتهزت تلك الفرصة لأعتبرها حجة وأقنعه أن لا جدوى من متابعة ذلك الموضوع الذي تعثر ووصل لطريق مغلق، مبيديًا رغبتي بالعودة معه إلى مجاميع حزبنا في كوردستان العراق، فلم يعلق بشيء وتلك دلالة رفضه لاقتراحي بالعودة لعدم رغبته بمساعدتي من أجل الرجوع لمجموعتي بناوچة ماوت، أو حتى الانتقال للعمل بناوچة بنچوين التي يقودها هو بنفسه.. والمحير بذلك الرجل أنه لم يكن متحمسًا أن أذهب لأعمل بعيدًا في المكتب السياسي وبنفس الوقت أدار ظهره لي عندما رجوته بأن يصطحبني معه أثناء عودته لمجموعته ناوچة بنچوين بكوردستان العراق..

وفي ذلك الموقف طلبت منه طلبًا آخر كنت أبغي من خلاله الابتعاد عن طريق ذلك الپاسدار الذي كان يزور مضيفي بين الحين والآخر، لأني كنت أخشى من نظراته العدوانية التي سرعان ما ستنقلب لأنياب كاسرة ستؤذيني حتمًا بغياب صاحبي شريف كچل، فقلت له:

– كاك شريف لقد أثقلت عليك بهمومي، وإني أستأذنك بالمغادرة للمكوث بإحدى الفنادق المتواضعة الموجودة بسوق المدينة.

فأجابني بحماس ونبرة حادة:

– ابقَ معنا لأننا نعزك ونحترمك، بل ونعتبرك واحدًا منا، فرجوته للمرة الثانية وكنت أبغي بذلك ليس الانتقال للفندق وحسب بل لأكون حرًا وبذلك أستطيع أن أحزم أمري وأعود مع العائدين من پيشمرگة حزبنا من الذين انتهت إجازاتهم إلى كوردستان العراق.

فقال صاحبي بغضب:

– سأخاصمك إن تفوهت بهذا الموضوع مرة أخرى، فسلمت أمري لله لقلة حيلتي بكيفية إقناعه بعد أن أغلق كافة أبواب الخلاص بوجهي.

مرت أيام أخرى كنت أقضي معظم وقتي أثنائها متجولاً بالسوق الصغير للمدينة، وهناك التقيت بأحد أصدقاء مضيفي من الذين يرتادوا مضيفه أثناء فترة المساء، وكان لديه دكانًا بسوق البلدة لخياطة الملابس وكان يجيد التحدث بالعربية، فأمضيت معه أوقات طويلة من أجل أن أخفف تواجدي الذي تثاقلت به على بيت مضيفي، وبنفس الوقت أصبحت أحد زبائنه عندما طلبت منه أن يخيط لي بدلة جديدة بالزي الكوردي مقابل ثمن اتفقنا عليه، وخلال فترة المساء كنت ألتقي بالعديد من الأخوة الكورد العراقيين والإيرانيين الذين كانوا من رواد مضيفة صديقي في بيته، ومنهم أيضًا ذلك الپاسدار الفارسي المدعو صادق الذي كان يرمقني خلسة بنظراته الخبيثة، وبإحدى المرات كان قد جلب معه كاميرا من أجل التقاط بعض الصور التذكارية لنا جميعًا ولكني استنتجت أنه أراد أن يصورني بالذات من أجل أن يتمعن بشكلي على مهل، على طريقة محققي الشرطة في الأفلام البوليسية التي يغرم بها الصبيان من أمثاله.

وعندما ازدادت شكوكي التي كانت كلها بمحلها بنوايا ذلك المتطفل، أخبرت مضيفي عن قلقي من صاحبه هذا، فأجابني: لا عليك فإنها مجرد تصرفات صبيانية ولا تعني بالضرورة أنه يبيت في نفسه أمرًا سيئًا ضدك، مؤكدًا بأنه حتى لو حدثته نفسه بذلك فإنه لن يستطيع أن يمسني بسوء لأني في بيته وبضيافته وتحت رعايته..

ومن الأمور التي عرفتها عن صديقي شريف كچل أن إحدى زوجاته الأربعة كانت هي ابنة خاله، الذي يرعى مصالح البيت أثناء غيابه في كوردستان

العراق، وخاله هذا رجل محترم وشيخ ختيار بعمر الستين عامًا، وله ابن اسمه كاوه كما ذكرت ذلك سلفًا، وبنت أخرى بعمر الثمانية عشر سنة.

بعد مضي أسبوع على وجودي معهم أخبرني مضيفي أنه سيغادر إلى كوردستان العراق للالتحاق بمجموعته، مشددًا علي أن أبقى في بيته عند سفره لوجود خاله وابن خاله، اللذان سيهتما بتلبية كافة احتياجاتي من بعده، ومن كلامه هذا تيقنت أن الحديث بموضوع نقلي قد تسوف وأصبح لا قيمة له، بل لا وجود له على الإطلاق. وقد شدد علي بأن أتخلى عن موضوع نقلي إلى المكتب السياسي والمكوث معهم بصفة دائمة بمريوان، فقلت له:

– كيف يكون هذا ولماذا؟

فقال وتلك هي المرة الوحيدة التي وجدته يتحدث بجدية:

– لتستقر وتعيش معنا كبقية الكورد هنا وإن شئت نزوجك أيضًا.

– والثورة الكوردية التي هجرت أهلي وأحبائي من أجلها؟!

– هل تصدق أن هناك ثورة وثوار من أجل القضية الكوردية، الكل يتطلع ويسعى من أجل مصلحته الشخصية باستثنائك أنت وهذا ما أعجبنا بك لأنك رجل موقف ومبادئ، ثم أضاف: انظر يا عزيزي إنني وجميع أفراد مجموعتي البالغ عددهم أكثر من خمسين مقاتلاً كنا ضمن تشكيلات الجاش، نعمل بالضد من الحزب الديمقراطي وباقي الأحزاب الكوردية من أجل مصلحتنا، وليس خدمة للدولة العراقية، باعتبارها على حق أو على باطل..

وأخذ يقص علي كيف كان يذهب إلى بغداد ويدخل لوزارة الدفاع وهو يحمل مسدسين بخاصرته، وكيف كان كل ضباط الاستخبارات العسكرية هناك يهابونه ويحترمونه لمقدرته العسكرية وبنادق مجموعته التي يحتاجوها، وأضاف:

– وعندما اتصل بي الحزب الديمقراطي ليعرض علي امتيازات مادية ومعنوية أكثر تحولت مع كامل أفراد مجموعتي من الجاش لنكون بناوچة بنچوين كپيشمرگة نقاتل الحكومة التي كنا معها، ولا أذهب بك بعيدًا عندما أضرب لك جلال الطالباني مثالاً على قولي هذا، باعتباره هو من عمل على تأسيس قوات الجاش بعام ١٩٦٦، وهو اليوم زعيم كوردي بارز ورئيس لحزب الاتحاد الوطني الكوردستاني، ثم أضاف قائلاً: يا صديقي العزيز تخلى عن هذه الأوهام من رأسك لأني أخشى عليك من تبعاتها، ذلك لأنني أقدر فيك إخلاصك، وأحترمك لأنك واضح بطرحك لما تريده، على العكس من كل أولئك الذين تراهم كل يوم في مجلسنا هذا، لأن كل واحد منهم يلف ويدور سعيًا من أجل مكاسبه الشخصية فقط..

بتلك الكلمات ختم الرجل قوله من غير أن أنتبه ويا للأسف إلى أنه كان تحذيرًا لي أكثر مما هو نصيحة أخوية، ولكني لم أفهمها حينها لجهلي بطبيعة الناس من حولي، فقلت له:

– إني أشكرك على مشاعرك الأخوية الصادقة تجاهي، واعلم يا صديقي العزيز أن منزلتك عندي جدًا عظيمة، ولكني لا أستطيع أن أحيد عن الخط الذي نذرت له نفسي في خدمة الآخرين من أهلنا، وليس الالتفات إلى مصالحي الشخصية التي هي أصلاً أبعد ما تكون عن ذهني وتفكيري، فتلك هي وجهة نظرك في الحياة وأنا أحترمها وأقدرها، ولي وجهة نظر أخرى لا أستطيع أن أغيرها، وهذا لا يمنع أن نستمر بصداقتنا الأخوية بعد أن طوقت عنقي برعايتك وبمعروفك وبكرمك اللا محدود لي.

– يؤسفني أن أقول لك بحكم تجاربي التي لم تمر أنت بمثلها، إنك ستندم في يومٍ ما.

– أندم على ماذا؟ وأنا قد وهبت حياتي وهدرت دمي من أجل المبادئ التي تعرفها أنت قبل غيرك، فأنا رجل بلا مستقبل، وهكذا هي لعبة الزمن تبدأ بولادة وتنتهي بموت تتخللها حياة نترك فيها بصمة لسيرة حسنة تبقى خالدة من أجل أن يترحم على أرواحنا كل من عرفنا وعاشرنا، وحتى على افتراض أنني لو قبلت أن أنقلب لأكون من الذين يبحثوا عن مصالحهم وهذا لن يكون حتمًا، فمصلحتي بالتأكيد لن تكون بالاستقرار بإيران على وجه التحديد.

على هذا انتهى ذلك الحوار الذي كان على المكشوف كما يقال بيني وبين صديقي شريف كچل، ومن جانبي كنت صادقًا بكل كلمة قلتها له، لأنني مؤمن بما أقول، وكنت ولا زلت من الذين لا يتخفوا وراء الشعارات البراقة، إضافة لذلك فإن صورة تلك المرأة العجوز التي كنت قد التقيتها عند إحدى المقابر بأعالي التلال بمنطقة شهرباژير كانت ماثلة أمامي عندما هزت حينها حزامي البشتين الكوردي وهي تقول لي: إن شرف كوردستان معلق بأياديكم فلا تتخلوا عنها بهذه المرة أيضًا.

في صباح اليوم التالي غادر مضيفي بصحبة البعض من أفراد مجموعته إلى كوردستان العراق، وتم توصيلهم بسيارات عسكرية إيرانية إلى الحدود من قبل ذلك الپاسدار الفارسي الذي كنت أشعر بأنه كان يتربص بي ويضمر لي الشر بنفسه، وبقيت مع خال مضيفي في بيته بانتظار المجهول وكأنني كنت تحت الإقامة الجبرية وليس ضيفًا بإمكانه أن يغادر متى يشاء، وحينها أخذت أقلب كل الأحداث التي تسارعت معي بالآونة الأخيرة، وأربط أحدها بالآخر، حتى استنتجت أن موضوع أمر نقلي لا وجود له بالأساس، وما أنا فيه لا يعدوا سوى نفي أو إبعاد قسري عن مجموعتي بناوچة ماوت، بعد أن أصبح وجودي فيها أمر غير مرغوب به، نتيجة مواقفي واعتراضاتي ضد الأعمال المخزية

التي كانت تمارس تحت غطاء النضال والثورة، وهي بحقيقة أمرها كانت تخدم أحزابهم وأطماعهم الشخصية كما شرحها لي صديقي شريف كچل بالتفصيل، ونتيجة لذلك فقد تفضل علي صديقي الذي أعتقد أن له علم بذلك الموضوع، وبدوره سعى مشكورًا أن يتبناني، ولكني لم أفهمه، أو قد فهمته من خلال صورة ضبابية وتغاضيت عن التجاوب معه اعتزازًا بنفسي لأني لست سلعة رخيصة تباع وتشترى.

وعند المساء وبينما كنت جالسًا مع مضيفي خال صديقي شريف بغرفة الضيوف، دخلت علينا مجموعة من قوات الپاسداران الإيراني متجهمة الوجوه يترأسها ذلك الفتى الفارسي المدعو صادق، فاستأذنوا من مضيفي بغرض الانفراد بي لغرض محاورتي، فأذن لهم وقد خُطف لون وجهه لاحتمال معرفته بنواياهم الخبيثة، لقد كانوا أربعة أشخاص بضمنهم مترجم عربي من حزب الدعوة الشيعي العميل لإيران وهو يرتدي نفس الزي العسكري للپاسدار، فعرفت حينها إني مقدم على امتحان عسير سأرسب به بكل تأكيد، لأني كنت ولا زلت فاشلاً بكيفية التلون كما تقتضي الحاجة الشخصية، ولا أعرف لماذا حينها قفزت لذهني الكلمة الأخيرة لصديقي شريف التي قالها لي بنهاية حوارنا بالليلة الماضية: إنك ستندم! لترتبط بذلك الحدث.

بدأ ذلك القزم الفارسي المدعو صادق بالحوار على الشكل الاستفزازي الآتي:

سؤال (١): لقد علمنا من مصادرنا في العراق أن أي فرد عندما يكون ضابطًا في الجيش العراقي فذلك يعني بالضرورة بأنه منخرط بتنظيمات حزب البعث، فهل لك أن تخبرنا عن درجتك الحزبية عندما كنت برتبة ملازم في الجيش العراقي؟

– أنا لم أكن عضوًا بحزب البعث وكذلك لم أكن ضابطًا برتبة ملازم في الجيش العراقي، والصحيح إني كنت برتبة نائب ضابط قوة جوية أعمل بصنف الهندسة الجوية، وإثباتي على صحة أقوالي هو مدون بهذا الكتاب الصادر من الفرع الرابع لحزبنا، والموجه إلى المكتب السياسي في قيادة الحزب الديمقراطي الذي هو حليفكم، أما رتبة ملازم التي سمعتها أنت عندما ناداني بها صديقي كاك شريف كچل فهي رتبة رمزية منحني إياها الحزب الذي أنتمي له في الوقت الحاضر كما تعلمون، ونفس الأمر ينطبق على اسمي الذي تغير من هشام ليكون سه رچل بحسب رغبة مسؤولي كاك قادر قادر وبموافقتي طبعًا.

كان الپاسدار صادق هو الذي تولى طرح الأسئلة بتلك الجلسة ودور رفاقه الآخرين هو تدوين ما نقول إضافة لتحضيرهم للأسئلة القادمة، ورفيقهم الآخر من حزب الدعوة الشيعي العميل كان ينقل ما أقوله أو ما يطرحه أسياده من أسئلة علي بعد أن يترجمها من وإلى الفارسية التي كان يجيدها ولم يترجمها بأمانة لأنه قد جعل من نفسه طرفًا معاديًا باعتباره واحدًا منهم، علمًا أن عناصر حزب الدعوة العميل لإيران كانوا على نوعين، الأول منهم كان موزعًا على جميع قوات الپاسدار كعنصر مقاتل لمحاربة العراق ناهيك عن الترجمة التي كانوا يقدموها للفرس من خلال التحقيقات التي تجرى مع أسرى الحرب العراقيين، إضافة إلى لعبهم لدور الجلادين أثناء تلك التحقيقات بكل حقد وكراهية تجاوز على الحقد الفارسي المعلن والدفين للعراق والعراقيين على مدى آلاف السنين.

والنوع الآخر منهم كانوا على شكل تنظيمات سرية بداخل العراق من أجل التخريب، من خلال زرع العبوات الناسفة بمناطق سكنية عديدة من أجل بث الرعب بين الناس، إضافة لتزويد حلفائهم أو أسيادهم في إيران بالمعلومات

الاستخبارية عن أي شيء ينفع أو تطلبه منهم إيران، ومن سخرية القدر أنهم حاليًا بعد أن ولاهم الأمريكان حكم العراق يتبجحون بكل صلف باعتبار أن تلك الفترة كانت مرحلة نضال لهم، ولله في خلقه شؤون.

سؤال (٢): باعتبارك من سكان بغداد، نريد منك أن تصف لنا حجم القطاعات العسكرية الأمريكية التي تقاتل إلى جانب العراق، ويقال إنها تتجول بمدنه بشكل علني؟

– ليس هنالك أية قطاعات عسكرية أمريكية تقاتل إلى جانب الجيش العراقي، كما أن كل تجهيزات الأسلحة العراقية هي من مصادر روسية المنشأ، ونحن في القوة الجوية كل طائراتنا كانت روسية أيضًا، وليس بينها طائرة واحدة أمريكية الصنع.

قاطعني مستنكرًا:

– لماذا لا تقول الحقيقة ونحن لدينا معلومات تؤكد اشتراك الأمريكان في الحرب على الجمهورية الإسلامية، والجميع يعرف أن العراق مدعوم من قبل قوى الاستكبار العالمي الذي تترأسه أمريكا، التي هي بحالة عداء دائم منذ ولادة الثورة الإسلامية بإيران..

فقلت متهكمًا:

– ما دامت مصادرك تؤكد لك ما قلته للتو فلماذا تسألني عنه؟ وعلى أية حال أنا أجبتك بما أعرفه من خلال ما كنت أسمعه وأشاهده كل يوم ببغداد، وبأمكانك أن تسأل أي عراقي آخر موجود في إيران ليجيبك بنفس ما أجبتك بهذا الصدد..

أدار وجهه تجاه ذلك الدعوجي الخائن الذي أجابه من فوره بعبارة: باليه الفارسية، وتعني نعم توجد قطاعات أمريكية في العراق، فقال صادق:

– هذا واحد من أهل العراق يشهد خلافًا لما تقوله أنت، فلماذا تضللنا بمعلومات غير صحيحة؟

عندها نظرت باشمئزاز إلى ذلك المنافق الخائن الذي لم ألتق طيلة حياتي بمثل نوعه الرخيص وما أكثرهم اليوم، وتيقنت حينها أن الموضوع ليس مجرد أسئلة بريئة مطلوب الجواب عليها، بل هي مؤامرة مدبرة للإيقاع بي، ويجب علي أن أكون حذرًا، والفرس دهاة بطبعهم وأنا قليل الحيلة.

سؤال (٣): ما هي معلوماتك عن وجود بعض الإيرانيين الخونة الذين يحاربوا بلدهم إيران إلى جانب الجيش العراقي؟ من هم؟ وأنصحك أن لا تنكر وجودهم أيضًا، كما أنكرت وجود الجيش الأمريكي في العراق؟

(طبعًا هو يعتبر خصومه الإيرانيين من مجاهدي خلق خونة لإيران، وبنفس الوقت لا يعتبر أن العراقي الذي يصطف معه لضرب وطنه العراق خائنًا؟ هكذا هم الفرس متعالين على القوميات والمِلل ويسعوا لأن يجعلوا الجميع خدمًا لهم).

– ليس لدي معرفة تفصيلية عنهم بالرغم من مشاهدتي لهم في التلفزيون العراقي بإحدى المرات، وعلى ما أذكر فإنهم يدعوا بمجاهدي خلق أو ما شابه.

فقال بحدة:

– إنهم منافقون خلق وأنت تعظمهم وتسميهم بمجاهدين خلق، فهل أنت معجب بهم؟

فقلت وقد ثارت ثائرتي:

– يا أخي أنت تعرفهم أكثر مني فلماذا تسألني عنهم؟ واعلم أنني غير معجب بهم أو بغيرهم، وكلامك يناقض بعضه البعض، فمن ناحية تسألني عن حزب

البعث وتذكر اسمه كما هو، ومن باب آخر تسألني عن غيرهم وتريدني أن أغير اسمهم بما يتلائم وما تشتهي. وأنا لا يعنيني إن كان البعثيون هم عبثيون أو المجاهدين هم منافقين وأرجوك أن تدخل مباشرة بقول ما تريده مني لكي أجيبك بما أعرف.

سؤال (٤): حسنًا أخبرنا عن سبب تواجدك على الأراضي الإيرانية وهل دخولك إليها كان بطريقة غير شرعية؟ أم ماذا؟ وأنت تعلم أننا بحالة الحرب مع العراق.

– إن سبب وجودي بمريوان معلوم لك منذ اليوم الأول لوصولي، وكتاب النقل الذي زودني به الحزب الديمقراطي الذي هو حليفكم أضعه الآن بين يديكم ليفسر لكم الموضوع كاملاً.

سؤال (٥): هل أنت مسلم أم سني؟

– أنا مسلم طبعًا.

وأيامها لم تكن الطائفية معروفة في العراق وأنا كنت ولا زلت علماني التوجه، موحدًا بالله، وأكثر شيء كنت أعلمه بخصوص المذاهب هو أن من يعتمر العمامة البيضاء هو سني ومن يعتمر العمامة السوداء هو شيعي، حتى علمت خلال فترة الاحتلال الأمريكي للعراق أن من يعتمر بالعمامة البيضاء هو شيعي ويدعى بالشيخ، وأن من يعتمر العمامة السوداء هو شيعي أيضًا ويدعى بالسيد.

عندها ضحك ذلك العميل الدعوجي التافه باستهزاء وهو يسخر من إجابتي بأني مسلم، وقال لي:

– ألم تفهم أن السؤال معناه: هل أنت شيعي أم سني؟

فذهلت ولم أجرؤ لأصرح بعلمانيتي خشية من اتهامي بالكفر أو الزندقة. فقلت بكل صدق وذلك يعني أيضًا أنني مسلمًا:

– أنا الاثنان معًا..

فقالوا:

– يبدو إنك لم تقرأ التاريخ الإسلامي جيدًا، فكونك مسلم فذلك يعني أنك من أتباع آل البيت عليهم السلام، وكونك سني فذلك يعني أنك من أتباع صنمي قريش.

– مهلاً مهلاً فأصنام قريش قد كُسرت وتحطمت أثناء الفتح الإسلامي لمكة.

ضحكوا علي وقالوا:

– صنمي قريش هما أبو بكر وعمر ويبدو أنك فعلاً جاهل ولا تفقه من التاريخ الإسلامي شيئًا..

اقشعر بدني وأنا أسمع بكلتا أذناي شتم كبار صحابة الرسول الكريم ومن المقربين له، ومن شدة غضبي تناسيت الموقف الذي كنت فيه ولم أستطع كتمان استيائي لما سمعته منهم، واستنكرت عليهم ذلك القول الشائن وقلت لهم:

– إن آل بيت الرسول الكريم وأصحابه الكرام هم من نصر الإسلام ونشره في كافة البقاع..

فانقلب الأمر وبالاً على رأسي بتلك الإجابة، واستنكروا جميعهم وقالوا لي:

– كيف تساوي بين الحق والباطل؟ وبين الإيمان والكفر؟

لم أجبهم واعتمدت الصمت بهذه المرة...

انتهى الأمر على هذا بعد أن اتهموني بأني جاهل بالتاريخ، فتنفست الصعداء باستقبال سؤالهم القادم، بعد أن انكشف لي أن الغاية من تلك الأسئلة الاستفزازية الملغمة كانت من أجل ترويضي، أو بمعنى أصح من أجل تحميلي

للعديد من التهم تمهيدًا لما سيطلبونه مني لاحقًا.. ولكني خرجت باستنتاج مفاده بموجب تصنيفهم لمعنى المسلم بعقيدتهم الشيعية الصفوية، أن كنية جمهوريتهم الإسلامية تعني أنها جمهوريتهم الشيعية، ونفس الشيء ينطبق على تسميتهم للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذي يعني بموجب تصنيفهم بأعلاه هو المجلس الأعلى للثورة الشيعية في العراق.. وقد كنت صادقًا عندما أخبرتهم أنني جاهل بالتاريخ الإسلامي، الذي قصدت به ذلك التاريخ المزيف الذي كتبه ملالي الشاه إسماعيل الصفوي قبل مئات السنين، عندما دسوا فيه الروايات الهزيلة التي لفقها خيالهم الفارسي المريض.

سؤال (٦): نريدك أن تعرفنا بأهداف حزبكم الديمقراطي وما هي عقيدته؟

– لدي بعض الكتيبات الصادرة من الحزب الديمقراطي والمطبوعة بموافقات رسمية هنا في إيران، وهي تعبر عن أهدافنا القومية وعقيدتنا السياسية بهذه المرحلة، ومنها ما هو مطبوع بالعربية والكوردية ولا علم لي إن كان هناك نسخ منها قد طبعت باللغة الفارسية، اطلعوا عليها لأنها ستجيبكم عن كل ما تريدون معرفته عن حزبنا الديمقراطي.

فقال بصلافة:

– هذه الكتيبات طبعت من أجل أن تُرسل إلى العراق وليس من أجل أن تُقرأ هنا بإيران، حدثنا أنت بما تعرفه عن حزبك الذي انتميت له عن قناعة بمبادئه وأهدافه، لأن هذا الأمر يهمنا أن نتعرف عليه من خلالك أنت بالذات، ولا يعقل أنك لا تعرفها وأنت عضو مرشح للعمل بالمكتب السياسي للحزب الديمقراطي؟.

فقلت بكل صدق كل ما أعرفه عن شعبي الكوردي ونضاله على مدى التاريخ، ولم ألتزم فقط بشعارات الحزب الديمقراطي الذي يذكرها بكل أدبياته السياسية من باب الإعلان وليس من أجل التطبيق كما اتضح لي، وأستطيع الجزم أن كل

الذين كانوا بتلك الجلسة على معرفة بذلك التاريخ النضالي العريق لشعوب الأمة الكوردية عبر الزمن ومنذ آلاف السنين..

فقال وكان الزبد يتطاير من فمه القذر:

– ما هذا الذي تقوله؟ إنه الكفر بعينه..

فقلت بحزم:

– لماذا نكفر عندما نقول إننا كورد ولا نكفر لو قلنا نحن فرس أو عرب أو أتراك، والله عز وجل يقول بكتابه الحكيم: "إنا خلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا.."، فما الضرر من التمسك بالقومية الكوردية تحديدًا؟ وأين مكمن الكفر بهذا الحق الذي لم ينكره الله على عباده؟!

فقال متملصًا:

– إنك لم تكمل الآية لتكون: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

وكان يشير بإصبع إبهامه إلى صدره وهو يتلفظ عبارة: إن أكرمكم. على أساس أنه ابن الأكرمين على باقي الشعوب والقبائل كما تحدثت عنها الآية الكريمة. فاستطردت قائلاً بحزم أقوى:

– إذا كانت لديكم أية اعتراضات على نهج عقيدتنا القومية الكوردية باعتبارها نوع من أنواع الكفر؛ فلماذا تسمحوا بفتح مكاتب ومقرات للحزب الديمقراطي الكوردستاني على أراضيكم؟ وبالذات مقر قيادة الحزب الذي يشغله رئيس الحزب كاك مسعود البرزاني، لتبلغوه شخصيًا باعتراضكم على نهجه القومي، أو على الأقل لا تسمحوا له بطبع منشورات حزبه بمطابعكم..

فقال بكل صلف:

– سمحنا لكل المكاتب والمقرات الحزبية للحزب الديمقراطي بالعمل في إيران، لأنهم لا يدعوا لنفس ما تقوله أنت، وضمنهم رئيس حزبك مسعود البرزاني

الذي ذهب لمواجهة الإمام الخميني، وجلس عند قدميه، ووعده بتسليمه كوردستان على طبق من ذهب إن هو زوده بالمال والسلاح والدعم اللوجستي من قبل الجيش الإيراني له، ولهذا فكلهم يقولون قولاً مغايرًا لما تدعيه، وإذا أردت أن تتعرف على السبب فذلك لأنهم جميعًا يعملوا لدينا بالأجرة، ونحن من يتحكم بكل خطواتهم وتحركاتهم، سواء في العراق أو في إيران، وأظنك لا تعلم أيضًا أنهم يقاتلوا إلى جانبنا بقمع التمرد الكوردي الإيراني من الذين يؤمنوا بنفس أطروحاتك القومية المستهلكة هنا في مريوان وبأماكن أخرى من شمال إيران.

قلت وقد ضاقت نفسي حد الاختناق:

– لماذا كل هذا اللف والدوران؟ لماذا لا تقول ما تريده مباشرة؟ وما الغاية من كل هذا الكلام، الذي تارة تكفرني به، وتارة أخرى تهددني من خلاله بشكل مبطن؟ قل لي ماهو المطلوب مني وسأجيبك مباشرة بشكل واضح، سواء رضيت أم لم ترضَ به، واعلم أن كاك مسعود البارزاني لا يحتاجكم بقدر ما أنتم تحتاجوه، وما تقوله عنه من تبعية ذليلة لكم هو أمر لا صحة له لأنه من بنات أفكارك أنت..

سؤال (٧): حسنًا، نحن ندعوك أن تنضم إلى قوات بدر، وهي مجاميع عراقية مقاتلة، تمَّ توحيدها تحت تشكيل أسسناه حديثًا أسميناه المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وهو يقاتل القوات الصدامية في الجنوب كما تفعله مجاميعكم الكوردية بمقاتلة القوات الصدامية في شمال العراق، وباعتبارك عسكري سابق في الجيش العراقي؛ فمن المؤكد أن لك خبرة في القتال، ولذلك فنحن نحتاجك، وبالطبع لن يضيرك أن تقاتل القوات الصدامية تحت أي عنوان لأنه نفس العدو، وهذا ما نريده منك بالضبط!

– كان بإمكانكم أن تدعوني لهذا الموضوع مباشرة من غير أن تكفروني تارة وتخونوني تارة أخرى، ثم تستخفون بنضال شعبي الكوردي بالختام، وجوابي على طلبكم هو أنني كنت قد جئت بمهمة محددة من قبل حزبي للالتحاق بالمكتب السياسي، لا من أجل أن أذهب كما تدعوني إلى تشكيلات غير كوردية لا تربطني بها صلة العقيدة أو الهدف، ويؤسفني أن أقول لكم إنني أرفض طلبكم هذا، وأنكم قد اخترتم الشخص غير المناسب لهذه المهمة.

قال وعلامات العجب كانت بادية عليه:

– لكنك على أرضنا، ويجب أن تُطيع أوامرنا كدولة إسلامية، ولا تنسَ أنك مسلم.

قلت وقد ركب التعصب الكوردي رأسي:

– لنتكلم بصراحة أكثر، لقد قلت عن رفاقي البيشمرگة أنهم يعملون لديكم بالأجرة، إذن كيف تفسر استمرار الثورة الكوردية في العراق لعشرات السنين من النضال؟ فهل كانوا طوال تلك الفترة الطويلة من نضالهم يتلقوا الأوامر منكم والثورة الإسلامية في إيران– ومع شديد احترامي وتقديري لها– بعامها الثالث بعد ولادتها، وخلاصة كلامي هو أن لكم طريق ولنا طريق..

ولعجز ذلك الفارسي التافه من الإجابة فقد قال:

– هل تشبهنا بالكفار بزمن قريش؟

فقلت:

– معاذ الله، متى قلت هذا؟

ولم أعلم ماذا كان يقصد. فقال:

– كيف لا وأنت تقول نفس الكلام الذي قاله المسلمون لكفار قريش ببداية الدعوة الإسلامية: "لكم دينكم ولنا دين..".

علمت أنه قد رجع لأسلوب التهديد فقلت له:

– يظهر أن هناك سوءًا مقصودًا في الترجمة من أخينا العراقي العربي، لأنه يحرِّف عن قصد ما قلته من كلام واضح. وبالمناسبة فاللغة الفارسية كانت مفهومة لدي بأغلب جملها لأنها تحتوي على مفردات من اللغة الكوردية والعربية.

فرجع مرة أخرى يزايد بشكل رخيص وقال:

– يجب أن تعلم أنه ليس هناك بيننا عربي أو كوردي أو فارسي، فكلنا جنود للثورة الإسلامية، ونحن ماضون من أجل تأسيس الدولة التي لم يتسن للإمام علي (ع) إقامتها بسبب مقتله.

فقلت بعد أن أجهدتني تلك المناقشة السقيمة:

– في هذه المواضيع الدينية ومن غير لبس أو تحريف لكلامي؛ فإنني أعترف لكم وبكل وضوح بعدم فهمي بأمور الدين والفقه، وكذلك فإني لست مطلعًا على التاريخ الإسلامي بكل فصوله.

(طبعًا كنت أقصد عدم اطلاعي على التاريخ المزور الذي كتبه الفرس)، وأن جميع اهتماماتي منصبة فقط برفع الظلم عن شعبي الكوردي، وكيفية استرجاع حقوقه المغتصبة، فأنا مقاتل كوردي عراقي، وأهدافي معلومة ومعلنة من قبل قيادتي التي هي في إيران، فإذا لم يرق لكم أمرنا أغلقوا جميع مكاتب ومقرات حزبنا واطردونا إلى خارج حدودكم وحينها سأكون أول المغادرين. فقال بخبث:

– ذلك يعني أنك ترفض القتال إلى جانبنا ولا تقدم ولاء الطاعة للجمهورية الإسلامية ولقائدها الإمام الخميني؟

قلت موضحًا:

– مهلاً، نعم أرفض طلبكم، ولكن ليس كما تصفه أنه خروج على الطاعة لأنني حر بقراري فأنا اعتذرت لكم عن قبول مادعوتموني له لانشغالي بمهمة أخرى.

فقال بامتعاض:

– أخبر مضيفك أننا نريد المغادرة من أجل إفساح المجال لنا بالخروج.

فناديت على مضيفنا الذي جاء ليصطحبهم حتى الباب الخارجي للدار، ولدى رجوعه سألني بقلق عن ما دار من حديث بيني وبين ذلك الپاسدار وجماعته، فأخبرته تفصيليًا بكل ما دار بيننا من حوار سقيم دام لثلاثة ساعات.. فقال:

– إن الذي قلته لهم أمر لن يمر بسلام، خصوصًا تصريحك القومي بما يخص النضال الكوردي، لأن لا أحد منا بإمكانه أن يتجرأ ويتفوه ولو بكلمة من هذا الذي قلته لهم، حتى لو كان المتكلم كاك مسعود البارزاني الذي هو رئيس حزبنا، لأنه يعرف كيف يدير اللعبة مع هؤلاء..

– إذا كان البوح بما نؤمن به خطيئة فما جدوى نضالنا هذا؟ وإذا كان لازمًا علي أن أجاري صبيان الفرس بأطروحاتهم السخيفة، فكان الأولى بي مجارات مسؤولي حزب البعث الذين لم أسمع منهم نفس ما سمعت من تفاهات بهذه الليلة، ولكنت قد صفقت لهم ومدحتهم بمناسبة وبدون مناسبة ليتركوني وشأني، وبذلك أكون قد وفرت على نفسي الجهد والمشقة والهجرة عن بيتي وأهلي..

– لكني لا أخفي عليك قلقي الشديد لما قد يستطيع فعله هؤلاء الصبية من سوء بك، لننتظر للغد ولنرى ما سيكون من أمرهم معك..

– والله لن أرضخ لما طلبوه مني مهما تكون النتائج، وأنا لست نادمًا على كل كلمة قلتها لهم، ولن أرضى لنفسي أن أكون بندقية للبيع.

في اليوم التالي تعمدت أن أقضي معظم وقتي متجولاً بسوق المدينة، أفكر بطريقة لا تثير الشكوك أستطيع من خلالها العبور لكوردستان العراق أثناء رجوع بعض البيشمركة الذين انتهت إجازتهم، ولكن بدل أن أعثر على البعض منهم، التقيت بالبعض ممن أعرفهم، ليخبروني أن كاوه ابن مضيفي يبحث عني بطرقات البلدة من أجل الرجوع للبيت لأمر مهم..

ذهبت لدارهم وهناك وجدت الپاسدار صادق بانتظاري جالسًا بصحبة ثلة من رفاقه المسلحين، فسلمت عليهم جميعًا ومددت يدي لمصافحته، فمد يده بعد أن قبض على كفه على طريقة المتلاكمين، وهي على ما كان يبدو طريقة فارسية تعبر عن عداء صاحبها، كطريقة البعض منا عندما يمتنع من مد يده لمصافحة من له خصومة معهم.. فعرفت على الفور أن هناك أمر سيء بانتظاري، وأثناء جلوسي وسط ذلك السكون الذي خيم على الجميع، تفحصت تلك الوجوه المتجهمة على أمل أن أفهم من ملامحها شيئًا، وعندها سألت مضيفي عن الموضوع المهم الذي من أجله بعث ابنه ليبحث عني في سوق المدينة؟، أخبرني بالكوردية والأسى بادي على محياه:

– إن الجماعة جاءوا لكي يلقوا القبض عليك بتهمة التجسس لصالح العراق!!

فسألت صادق بلهجة المعاتب:

– كيف حدث هذا بين ليلة وضحاها؟

– لقد وصلتني اليوم معلومات تؤكد أنك كنت ضابطًا في استخبارات مدينة البصرة بجنوب العراق، وتم نقلك إلى مدينة السليمانية في الشمال لكي تندس في صفوف الحزب الديمقراطي من أجل أن يتسنى لك المجيء لإيران، ذلك لمعرفتك السابقة بمدى علاقتنا الوثيقة بهذا الحزب، لكي تنفذ من خلاله مهمتك التجسسية التي سنتعرف على تفاصيلها من خلال التحقيق معك..

– إنها أكاذيب اختلقتها بنفسك من أجل إلحاق الضرر بي، وكان الأجدر بك أن تُلقي القبض علي ليلة البارحة أثناء تقاطع أفكارنا ومبادئنا، لتتهمني بالكفر نتيجة تمسكي بقضيتي الكوردية التي أنكرتها أنت، ناهيك عن عدم تلوني للصبغة التي أردتني أن أكون عليها، عندما دعوتني بلهجة الأمر للالتحاق بقوات بدر التابعة للمجلس الأعلى للثورة الإيرانية في العراق... على أية حال فأنا لا زلت متمسكًا بأقوالي وثباتي على ما أؤمن به ككوردي قومي، وسآتي معك حيثما تريد، ولكن بشرط حضور مسؤول مكتب حزبنا الديمقراطي في مريوان المدعو حمه سور حسين، لأنه يعرفني جيدًا ويعلم بأمر نقلي إلى مقر قيادة الحزب.

– عن أي مسؤول حزب تتكلم أنت؟؟ أنا أستطيع الآن أن أذهب إليه وأهدم سقف مكتب حزبكم على رأس مسؤولك الحزبي هذا، ولكني احترامًا للبيت الذي أنا فيه الآن، ولحرصي على عدم إحداث ضجة؛ سأرسل بطلبه وسترى بأم عينك ماذا سيكون موقف ممثل حزبك هذا منك.

عندها أرسل أحد رفاقه من الپاسدار بطلبه، وأثنائها استأذنت بحجة الذهاب للمرافق الصحية لكي أحصل على فرصة أعطي ابن مضيفي كاوه ما كنت أحمله من نقود عراقية كانت بحدود المائتين دينار التي قيمتها بتلك الفترة ستمائة دولار، لأني خشيت أن يصادرها ذلك الپاسدار التافه أثناء تفتيشي بمقرهم، ثم رجعت لمكان جلوسي.

جلسنا بانتظار قدوم حمه سور حسين صامتين حتى حضر وهو مرعوب مما سمعه عني من تلك التهم الكيدية الملفقة، وقال من فوره: لا مانع لدي على الإطلاق من إلقاء القبض على هذا الرجل الذي لست على معرفة تامة به، أنتم تمثلون الدولة وأنتم أعرف منا به. وعندها كشر صادق عن أنيابه بابتسامة

مسمومة صفراء، وعينيه تقول لي: ألم أقل لك البارحة إنهم جميعًا مدفوعي الأجر ويعملوا بأوامرنا، فالتفت لمضيفي خال صديقي شريف كچل عسى أن يشفع لي بهذا الموقف ويدافع عني ولو بكلمة يسجلها لتاريخه الشخصي، فأدار الرجل وجهه عني لجهة أخرى كدليل عجز عن مواجهة الموقف الذي هو أعلم من غيره بخلفيات وأسباب تلك التمثيلية المدبرة...

عندها وضعت يدي على كتفه وأنا أنهض لكي أذهب مع الپاسدار صادق وقلت له: لا عليك يا خال إن الله مع الصابرين.. مضيت بطريقي نحو الاعتقال مع ذلك الپاسدار الفارسي القزم صادق، متوكلاً على رب العباد من شر العباد، ورأسي مرفوع بعد أن تخلى عني رفاق الأمس الذين كانت رؤوسهم مطأطأة نحو أقدامهم، لأترك وحدي أقاتل بالكلمة الصادقة ضد عدو متجبر غير آبه بكل العواقب التي كانت تنتظرني، ولسان حالي يقول: السعادة بالنضال والتعاسة في الخنوع.

عند خروجنا لشارع باب الدار وجدت بعض الفضوليين اللاجئين من الشباب الكورد الذين كثيرًا ما حادثتهم أثناء ضيافة شريف كچل لي ولهم في بيته، وقد أسمعوني كلامًا نابيًا كان الغرض منه أن ينالوا رضى الپاسدار عنهم، وليس لأنهم صدقوا أنني جاسوس عراقي، وعندها وضع الپاسدار الأصفاد بيدي ورجلي ثم حملوني ليرموا بي بحوض سيارة البيك أب التي كانت متوقفة بذلك المكان وكأني حيوان ولست إنسان، ثم صعد أصحاب البنادق منهم ليحوطوني أثناء وجودي بحوض البيك أب، بينما صعد الپاسدار صادق ليقود السيارة، وعند تحركنا تجاه مقر الپاسداران رفع جميع من كان حاضرًا هناك يده من أجل تحية الوداع لأفراد الپاسدار، مع ابتسامة منافقة مرسومة على وجه كل واحد منهم، وكأنهم كانوا يقدمون ولاء الطاعة أو الشكر الجزيل على اعتقالهم لي،

وأنا الذي تصورت ببداية رؤيتي لهم أن تجمعهم قد يكون من أجل التعبير عن اعتراضهم أو امتعاضهم بسبب اعتقالي.. ألا تبًا لهم ولما كانوا يفعلون.

كان الوقت هو الغروب، فنظرت لنفسي وأنا مستلقي على ظهري مكبلاً بالأصفاد من يداي وأرجلي، وعيناي معلقة بالسماء، وأجزم أن كل من تعرفت عليه أو هو يعرفني من أبناء جلدتي الكوردية قد تبرأ مني بذلك اليوم، وعندها تفتح ذهني لأستنتج أن ذلك الپاسدار اللعين لم يأتني هكذا من غير سبب ليعرض علي الانتقال لخدمتهم كبندقية للبيع، لولا أن هناك رغبة من جماعتي في الحزب الديمقراطي للتخلص مني، ونصيحة صديقي شريف كچل لي لم تأتِ من فراغ، وهذا يعني أنه كان على علم بتلك الصفقة الرخيصة ببيعي على الجاهز لإيران، ولذلك طلب مني التخلي عما جئت من أجله لأكون واحدًا منهم باعتباره يعرفني حق المعرفة وأراد أن يشتريني بدلاً منهم، ولكني لم أفهم معنى كلامه وما كان يدار بالخفاء من حولي، خصوصًا عندما أكد لي من خلال قوله: إن كل واحد منهم ينظر لمصلحته فقط، وهذا يدل على أن ضيافته الكريمة لي لم تكن من أجل تلك الصداقة الوليدة بيننا...

من خلال مراجعة سريعة للتواقيت الزمنية التي حدثت خلالها كل تلك التطورات؛ اتضح لي أن الرجل الذي كان مضيافًا كريمًا قد رفع غطاء حمايته لي فور سفره بصباح ذلك اليوم، عندما أوصله نفس ذلك الپاسدار صادق للحدود بنفس السيارة العسكرية البيك أب التي ستنقلني لمعتقلي، وهذا يوضح مدى العلاقة المتينة بينهما، وعليه فهل يعقل أن ذلك الپاسدار القزم قد تجرأ ليقتحم بيت أحد رموز القادة الذين لإيران مصلحة معهم من غير حصوله على الضوء الأخضر منه؟!... في تلك اللحظة فقط عرفت كم أن طيبة قلبي ونقاء سريرتي قد صنعت مني إنسان ساذج، يسبح ببحار الخطر دون أن يشعر

بالمخاطر التي كانت تدبر من حوله.. فقلت لنفسي بكل ألم: يا لتعاستي ويا لشقائي.. وإن كتبت لي الحياة لأعيش فيها مجددًا، فهل سأتعلم من ذلك الحدث ومن غيره مما هو قادم بتلك الرحلة الدروس أم سأظل كما أنا، أضحك لكل من يضحك بوجهي، وأتصور أن كل الناس مثلي؟ الجواب أقوله ونحن الآن بعام ٢٠١٦ أي بعد مرور أكثر من ٣٠ عامًا هو أنني بقيت ذات الشخص الشفاف ولم أستطع أن ألبس غير جلبابي، فالصراحة وحسن النية والصدق والثبات على القيم والمبادئ كانت وستبقى عنوانًا بارزًا يميزني عن الآخرين مادمت حيًا أرزق، والمثل يقول: إن لم تتألم لن تتعلم.. وأنا صعب علي أن أتعلم الغش والخداع لأنه ليس بالثوب الذي يليق بي بعد كل الآلام التي عانيت منها بسبب صراحتي وشفافية طرحي.

ولا يتصور من يقرأ كلماتي هذه أنني بصدد امتداح نفسي وتجميلها، لأن كل هذه الصفات الإنسانية الرائعة أصبحت مستهلكة بزماننا الحالي، بعد أن أصبح من يتمسك بتلك القيم والمبادئ العليا التي تربينا عليها يوصف بأنه فاشل بحياته أو مخبولاً بعقله.

وصلنا لمقر الپاسدار وكان على شكل قصر كبير بحديقة واسعة، من المؤكد أنه كان من قصور أحد أغنياء الزمن الشاهنشاهي وصادرته قوات الپاسداران. ترجلنا جميعًا من السيارة عند الباب الخارجي لمقرهم، وهناك لحق بنا مسؤول مكتب حزبنا بمريوان حمه سور حسين، وكان يود محادثة الپاسدار صادق، حيث قال له: افعلوا ما شئتم به ولكن أرجوكم لا تقتلوه، فقال صادق: لقد اعتقلناه من أجل التحقيق ومعرفة حقيقة أمره وبعدها سنرسله إلى طهران من أجل أن يلحق جموع الأسرى العراقيين حال فراغنا منه.. فقال حمه سور حسين: إذا كان هكذا فلا بأس من ذلك.

وأعتقد أن تصرف هذا الرجل على ذلك النحو الإنساني لم يكن نابعًا من ذاته أو لصحوة ضميره، وإنما كان مدفوعًا من قبل مضيفي خال شريف كچل الذي قرأت بوجهه علامات الأسى والألم لما حصل لي أثناء مغادرتنا لبيته، أو على أقل تقدير أنه كان وفيًا للاحترام المتبادل بيننا على مدى الفترة القصيرة التي عشتها معه في بيتهم.

دخلنا بناية مقر الپاسداران الإيراني، وهناك أدخلني القزم الفارسي صادق إلى غرفة مكتبه، وجلس على كرسيه واضعًا أرجله على منضدة مكتبه تجاهي على نفس الطريقة الأمريكية الوقحة، وابتسامة النصر الصفراء تعلو شفتيه التي يتناثر منها الزبد أثناء كلامه، وقال:

– سنرى إن كنت ستغير أقوالك بهذا الليلة أم أنك ستصر عليها كما كنت بالليلة الماضية!

فقلت برباطة جأش وحزم لم أرَ نفسي عليها طوال حياتي السابقة:

– سترى، ولكن بودي أن أعرف هل ستكون مناقشتك مصحوبة بتعذيبي جسديًا؟ بعد أن عجزت عن إذلالي لضعف حجتك أثناء الحوار الذي دار بيني وبينك بالأمس؟

قال بغضب:

– بل ستكون على طريقة الثورة الإسلامية..

ويقصد طبعًا ثورتهم الدموية، فقلت:

– ولكني أعرف أن الإمام علي الذي تتمثلون بقيمه كما هو معلن عندكم لم يكن حاشاه كذابًا، لأن المسلم الحقيقي لا يكذب، ولا يلفق التهم الباطلة مع من يختلف معه بالرأي كما فعلت أنت وألبستني تهمة كيدية رخيصة، وجعلتني جاسوسًا وأنت أول من يعرف أنني لست هكذا..

ولأن رحمة الله عز وجل واسعة لعباده المخلصين من الذين لا يبغون من متاع الدنيا شيء؛ فقد حدثت مفاجأة غير متوقعة، فقبل أن نستمر بحديثنا السقيم دخل علينا ضابط من الجيش الإيراني برتبة رائد، الأمر الذي جعل صادق يكف عني ويعتدل بجلسته، ونهض من كرسيه ليستقبل ذلك الزائر غير المتوقع، فالعلاقة بين الجيش والپاسدار لم تكن ودية، وهي متوترة على الدوام، وبذلك أراد صادق أن يثبت العكس، لأنه لا يريد أن يعكر صفو حفلة التعذيب التي أعدها لي بتلك الليلة، من خلال مشكلة قد تحدث مع ذلك الضابط..

عندها تحدث ذلك الضابط مع صادق بأمر يهم الاثنين لم أفهم تفاصيله، ولكنه أثناء كلامه انتبه لوجودي وسأل صادق:

– من هذا الذي عندك؟

فقال صادق:

– إنه ضابط استخبارات من الجيش العراقي مندس ضمن صفوف حلفائنا البارزانيين.

فقال الضابط:

– ماذا أنت فاعل بشأنه؟

– لقد قبضنا عليه للتو وسنحقق معه.

– لا يجوز لك التحقيق معه كما تنص القوانين لأنه عسكري من جيش معاد، ويجب التحقيق معه من قبل استخبارات الجيش الإيراني حصرًا..

– لكننا نحن من ألقى القبض عليه..

– ذلك لا يخولك سلطة التحقيق معه لأنك غير مختص بعمل الاستخبارات العسكرية، وأكرر القول لإنه عسكري وليس مدني لكي تحقق معه بموجب صلاحيتك التي تخولك باعتبارك مسؤول عن الأمن الداخلي..

ومن أجل أن يحسم الضابط ذلك الجدل لم ينتظر موافقة صادق بتسليمي له، وتوجه إلى جهاز التليفون الموجود على المنضدة ووجه نداءً لوحدته العسكرية يطلب فيها إرسال مفرزة عسكرية بغرض نقلي إلى سجنهم العسكري، غير آبه بقبول أو رفض ذلك الپاسدار اللعين صادق.. عندها تناسيت حجم المصيبة التي حلت بي بذلك اليوم، وتبسمت تشفيًا وأنا انظر باستصغار لذلك الفارسي النتن صادق، لأني تخلصت من سطوته وما كان يدبره لي من عذاب، أو لأنني تصورت حينها أن موضوع الدعوة الكيدية التي ألصقها بي صادق ستنكشف أثناء التحقيق معي من قبل الاستخبارات العسكرية الإيرانية لعدم وجود الدلائل الثبوتية، وتصوري أن محققي الاستخبارات سيسألونني عن الأسباب الحقيقية لاعتقالي، وعندها سأحكي لهم أن السبب هو رفضي الالتحاق بمجاميع الشيعة العراقيين من العاملين معهم ضمن تشكيلات قوات الپاسداران، وينتهي الأمر ببرائتي ورجوعي لصفوف الحزب الديمقراطي الذي هو حليف للجيش الإيراني بقتاله ضد العراق، وبعدها سيكون لي موقف وتصرف مع حزبي الديمقراطي بعد أن أتخلص من ذلك الفخ الذي وقعت به..

وما هي إلا فترة قصيرة حتى حضرت المفرزة العسكرية فخرجت معهم بعد أن رفعوا القيود التي كبلني بها الپاسدار من يداي وأرجلي، وذلك الضابط يقودنا حتى السيارة الجيب العسكرية المتوقفة خارج مقر الپاسداران، ركبناها ومضت بنا بعيدًا عن صادق وزمرته المهووسة بالدم والتعذيب، وأنا لم أصدق خلاصي بتلك السرعة، حتى أن الغبطة قد تملكتني وكأنني قد أطلق سراحي، فهل كانت العناية الإلهية ترعاني؟ أم أنها كانت مجرد صدفة؟ سؤال أترك تقديره لقارئ سطوري هذه لأني حتى الآن لم أعرف إجابة لذلك السؤال، ولكني علمت بعدها أن هناك تضاربًا بالرؤى كانت بين الجيش الإيراني وما يسمى بالحرس الثوري المسمى بالبارسدارن، وأن هناك حقد مكبوت بين الاثنين، وهذا ما جعلني مستغربًا من زيارة ذلك الضابط إلى مقر هؤلاء المجانين بذلك التوقيت..

أوصلتني المفرزة العسكرية إلى دائرة الانضباط العسكري للجيش الإيراني بمريوان التي كان موقعها على الشارع العام بوسط تلك البلدة الصغيرة، وهناك سلمتني المفرزة العسكرية إلى خفر الدائرة العسكرية بكل احترام من أجل الاحتفاظ بي والمحافظة علي حتى إتمام التحقيق معي، واستلمني حراسي الجدد بداخل المبنى وكانت معاملتهم لي غير سيئة وخالية من الخشونة التي كان عليها أفراد الپاسدار أثناء تعاملهم معي، وبدورهم أدخلوني لغرفة السجن التي كان فيها نافذة عالية مطلة على الشارع العام الذي تجولت فيه لعدة مرات من غير أن يخطر على بالي بأني سأستقر يومًا خلف قضبان تلك النافذة..

وقد علمت أنه قبل فترة كان قد شغلها بعض الجنود العراقيين الذين تمَّ أسرهم من قبل حزبنا الديمقراطي، وتحولوا لطهران ليلتحقوا بباقي أخواتهم الأسرى العراقيين بزنازين الأسر هناك، فتذكرتهم على الفور لأنهم نفس الجنود البسطاء الذين حاورتهم عندما كانوا محجوزين بمقر الفرع الثالث والرابع للحزب بمنطقة شهرباژير بكوردستان العراق، وكانوا من محافظة بابل، وسلموا أنفسهم طواعيًا إلى پيشمرگة الحزب الديمقراطي أثناء مداهمتهم لربيتهم العسكرية قبل حوالي الشهرين..

لقد كانت زنزانة السجن خالية من أي سجين آخر عند دخولي لها، الأمر الذي أتاح الفرصة لحراسها أن يسألوني عن سبب اعتقالي؟ فأخبرتهم بما حصل بيني وبين الپاسدار صادق، فقالوا إن هؤلاء الپاسدار قوم مجانيين ونحن متأكدين أنك عندما تلتقي بالمحقق وتخبره بذلك فإنه سيطلق سراحك ويعيدك لجماعة البارزاني على الفور، فسألتهم: متى سيأتي المحقق باعتقادكم؟ فقالوا: إنه عادة ما يأتي مرة كل أسبوع.. وعندما حل المساء جاءوا لي بطعام العشاء وبعض الأغطية من أجل النوم لبرودة الطقس أثناء الليل، لأننا كنا قد أوشكنا

على الدخول بفصل الشتاء، فجلست أنظر وأتفحص ما حل بي، وما عساي أن أفعل بعد أن تخلى عني الرفيق والصديق وكل من له صلة بي من أبناء جلدتي الكوردية، وحينها شعرت بحاجة ملحة لمراجعة صريحة لكل ما حدث معي، وذلك أمر تعودت القيام به عند مصادفتي لأي مطب كان يعترضني، وما أكثرها منذ أن بدأت مسيرتي من قرية گورگه يير تجاه المجهول الذي أوصلني إلى تلك الزنزانة.

وجدت سؤالاً واحدًا يدور بذهني: هل كنتُ على خطأ، وكل الذين اختلفت معهم بالرؤى والتطبيق العملي للنضال من رفاقي في الحزب الديمقراطي كانوا على صواب؟ ولماذا يبحثوا عن مصالحهم ويتلونوا كما يقتضي الزمان والمكان؟ وبنفس الوقت أنا لا أتزعزع عن المبادئ التي هم فقط يرفعوها كشعارات، من تلك التي يناضل الشعب الكوردي من أجلها، في حين أنهم تربوا وترعرعوا بربوع كوردستان، وأنا ولدت وكبرت بمجتمع بغداد بعيدًا عن كوردستان حيث موطن أبائي وكل أجدادي وعن ثقافة الشعب الكوردي، الأمر الذي أدى بي لأن تكون لغتي الكوردية شبه معدومة، واللغة بأدبيات الكورد تعتبر من مقومات القومية إن لم تكن هي عمودها الفقري، قياسًا للغة الكوردية التي كان رفاقي في الحزب الديمقراطي يجيدوها، ولكنهم تخاذلوا للباطل وتخلوا عن الحق وتبرأوا مني نتيجة جبنهم وعمالتهم للفرس الأنجاس وحكومتهم المللية الرعناء.

عندها شعرت أنني قد وضعت يدي على السبب الذي قد يكون هو العامل لاندفاعي القومي على ذلك النمط، باعتبارها مسألة نفسية ناتجة عن عجزي بموضوع اللغة استنادًا لمقولة: وكل ذي عاهة جبار، الأمر الذي انعكس على تصرفاتي بشكل لا إرادي، عندما عوضت عن عاهتي اللغوية من خلال التحدي

بعنفوان الكوردي الحقيقي الذي تطلعت لأن أكون هو، أو على أقل تقدير على نفس خطه، أو بتعبير آخر سائر على خطاه التي كتبها التاريخ عن الكورد ومآثرهم بالصمود والتحدي بعنفوان وشموخ عالي، حتى انتهى بي الأمر لأكون كبشًا للفداء وقربانًا لذلك الرمز الكوردي الذي سكن بعقلي وضميري..

وبافتراض أن ذلك الاستنتاج كان صحيحًا؟ فإلى أي حد سأبقى متماسكًا وعنيدًا وأنا الذي لم أتعود الحبس وما قد يصاحبه من مهانة؟ سؤال لم أعرف له إجابة، وتركته للأيام القادمة وما سيحل بي خلالها، على الرغم من يقيني المطلق على مدى استعدادي لمواجهة الموت كمحطة أخيرة محتملة، باعتباره نصرًا قياسًا لأي نوع من الإهانات التي كنت ولا زلت أفضل مغادرة الحياة بغير أسف ولا أعيش ذلها..

وعليه واستنادًا لكل ما تقدم من مراجعة مع ذاتي وضميري وضعت استراتيجيتي للخلاص من ذلك الفخ الذي وقعت به، وذلك بالمضي قدمًا على نفس النهج الثوري الذي أوصلني إلى تلك الزنزانة، على مبدأ: وداوها بالتي كانت هي الداء، وذلك يعني التمسك بكل الثوابت التي من أجلها سلكت طريقي هذا، إيمانًا بأن النجاة بالصدق، بل كل الصدق لأني كنت أؤمن أن الله لن يتخلى عني وهو أعلم بما تضمره نفسي من نية حسنة، ولأن الموقف الذي كنت عليه بذلك المخاض الصعب لم يكن من أجل مكاسب أو مطامع أو منافع شخصية تمنيتها لنفسي لا سمح الله، وإنما كانت من أجل الانتصار لكلمة الحق التي لم أساوم على تغييرها من قاموس معتقداتي، أو أتخلى عنها بسبب هذا الظرف أو ذاك، لأن الرجل الحقيقي يجب أن يكون ثابتًا في المواقف الصعبة..

أما بالنسبة لعلاقتي برفاق الأمس من الذين تخلوا عني وباعوني بثمن بخس؛ فإني لم أكن راغبًا أن أفكر بما سيكون من أمري معهم، باعتباره أمر مؤجل

حتى أنال حريتي من جديد وأنتهي من ذلك الكابوس، وهو أمر اعتقدته قريب كما أكده لي بعض حراس ذلك السجن عندما قالوا لي: إن بقائك معنا هو مسألة وقت لا تستوجب منك القلق بشأنها، لأن الپاسدار صادق سبق وأن فعلها مع غيرك وأطلق سراحهم بعد إجراء بعض التحقيقات الروتينة البسيطة معهم.. ولكني لم أكن متفائلاً من إمكانية حصولي على حريتي مجددًا بتلك البساطة التي صوروها لي، لأنني أصبحت تحت رحمة دولة الملالي التي تفتقر إلى كل شيء له صلة بالعقلانية، بمجمل تصرفاتهم الصبيانية الرعناء..

وبين هذا أو ذاك من تلك الأفكار الطارئة أو الثابتة التي كنت أراجعها مع ذاتي، وبين واقع حال لإنسان حر عشق الحرية ويقبع خلف قضبان تلك الزنزانة، صعب علي أن أشبهه بالأسد القابع بقفص أسره كما يحلو للبعض أن يصف نفسه عندما يكون بمثل موقفي هذا، وإنما أشبهه بعصفور الكناري وهو يغرد بأنغامه الشذية آملاً بنيله للحرية وهو وحيدًا بقفصه بعيدًا عن أهله وأقرانه.. وبالنتيجة كان هناك شعور واحد كان يشوش علي كل أفكاري، ويجعلني أشعر بالمرارة؛ وهو تخلي رفاقي عني على ذلك الشكل المهين للشخصية الكوردية قبل أن يكون مهين لهم كرجال...

انقضت تلك الليلة التي كنت أشعر فيها وكأن جدران زنزانتي كادت أن تطبق على أنفاسي، وجاء الصباح بشمسه التي اخترقت خيوطها قضبان نافذة الزنزانة لتنير المكان من حولي وتخفف من وطئة واقعي المُر الحزين، وفي ذلك الصباح تعرفت على أحد الجنود الإيرانيين من العاملين بتلك الثكنة العسكرية، وكان ينحدر من أصول كوردية واسمه قهرمان، وقد أظهر الرجل تعاطفه معي من خلال الاهتمام والرعاية والاحترام لي، بعد أن علم بما كان من أمري مع الپاسدار صادق الذي هو معروف من قبلهم باعتباره رمزًا من رموز الحقد والكراهية بتلك البلدة الكوردية الإيرانية الصغيرة.. وحينها قال لي: لقد

مضى علي وقت ليس بالقصير وأنا أعمل بهذه الثكنة العسكرية، وقد مرَّت علينا حالات كثيرة مماثلة لنفس أسباب سجنك، ولكنها المرة الأولى لي وأنا أرى أحد أفراد حزب البارزاني بهذه الزنزانة، ذلك لأنهم جميعًا من غير استثناء لأحدهم أبعد الناس من الذين قد تلصق بهم أية تهمة سياسية أو كيدية، لأن علاقتهم بالسلطات الإيرانية وبالخصوص قوات الپاسداران مبنية على الطاعة العمياء والولاء التام لهم..

بعد سماعي لرأيه لم أعلق على ما قاله ولا بكلمة واحدة، لأني كنت قد قررت عدم الخوض بأية نقاشات لها علاقة بتوجهات حكومة الملالي وشعبها مع أيًا كان حتى نيلي لحريتي من جديد، ويكفيني ما كنت فيه من تحميلي لتهمة التجسس على إيران، وهي أخطر تهمة على الإطلاق.. ولكن ذلك لم يمنعني من مجاملة (أغا) قهرمان، وهكذا كنت أناديه لأنني وجدت فيه الصورة المثالية للإنسان الكوردستاني في جميع ربوع كوردستان، التي هي الحلم المنشود لكل الأجيال الكوردية التي عاشت بعد تقسيمها لأربعة أجزاء، ونفس الشيء حصل للأمة العربية التي تقسمت ٢٢ دولة، ويحلم الكثير من القوميين العرب بالوحدة العربية بكافة أدبياتهم ولهم كامل الحق بذلك..

قبل أن تنتهي فترة الدوام الرسمي لتلك الثكنة العسكرية ويغادر قهرمان عائدًا لبيته؛ عرج علي بزنزانتي وسألني إن كنت محتاجًا لأي شيء يبتاعه لي من السوق وهو بطريق عودته إلى عمله بصباح اليوم التالي؟ فقلت له:

– أريد أن أكلفك بموضوع بسيط تفعله من أجلي، وهو أن تذهب إلى مكتب الحزب الديمقراطي المعروف بموقعه بالناحية المقابلة من الشارع، وتبلغهم بمكان وجودي الحالي، على أمل أنهم قد يتداركوني ويفعلوا شيئًا يعيد لهم القليل من ماء وجوههم بعد أن أصبح موضوعي خارجًا عن سيطرة الپاسداران.

– هل تعلم يا أخي العزيز أني إذا ما عملت ما طلبته مني للتو فإنهم من غير تردد سيخبرون إدارة هذه الثكنة بذلك، الأمر الذي قد يتسبب بنقلي إلى إحدى المعسكرات البعيدة.

– لماذا سيفعلون ذلك؟!

– لأنهم بلا ضمير، وأريدك أن تعلم أنهم لو كانوا جادين بنجدتك فإنهم لن يصعب عليهم معرفة مكانك الحالي، والأيام القادمة ستكشف لك صحة كلامي، وعلى أية حال بإمكانك مناداة من تعرفه منهم أثناء سيرهم أمام الثكنة أثناء رؤيتك لهم من خلال شباك الزنزانة المطل على الشارع العام، وإن كان عاليًا بعض الشيء ولكنك تستطيع تدبر الأمر من خلال الإمساك بقضبانه الحديدية لترفع نفسك إلى الأعلى بين الحين والآخر، وسأوصي زملائي الحراس الخفر ألا يمنعوك من ذلك ويسمحوا لأيًا منهم إذا ما رغب بمواجهتك..

فشكرته مودعًا إياه على أمل لقائه في اليوم التالي..

أمضيت وقتي لعدة أيام مترقبًا المارة من الناس على ذلك الشارع الذي كان بوسط تلك البلدة، عسى أن أرى بينهم أحد من رفاقي البيشمركة من الذين أعرفهم ويعرفوني، ورأيت الكثير منهم وكانوا كلهم يتجاهلون مناداتي لهم وأنا متعلقًا بقضبان شباك سجني، حتى أن البعض منهم كان يولي هاربًا وبشكل مهين وكأن أحد يجري من خلفه لكي يلقي القبض عليه، وبقيت أكرر تلك المحاولات حتى تيقنت أخيرًا أنه لم يعد هناك رجاءً يرتجى من هؤلاء الأقزام، وحينها تيقنت من صحة مقولة صاحبي الكوردستاني أغا قهرمان وبنفس الوقت التمست له العذر من عدم تلبيته لدعوتي بالذهاب إليهم، الأمر الذي جعلني أمنع نفسي مرات عديدة من تكليفه بإخبار بيت مضيفي شريف كچل لكي يعيدوا لي الأمانة المالية التي أودعتها عندهم لحاجتي الماسة إليها، كوني كنت أدخن ولا أملك من المال ما يكفي لشراء سيجارة واحدة..

بقيت على ذلك الحال وحدي بزنزانتي حتى دخل إليها في صباح أحد الأيام اثنان من الشباب الكورد، كانوا على ذمة التحقيق الروتيني لطالبي اللجوء في إيران.. وعندما وجدوني جالسًا بإحدى أركان الزنزانة وأنا بكامل الزي الكوردي الذي كنت أرتديه، فرحوا لذلك وأمطروني بسيل من الأسئلة التي لها علاقة بموضوع اللجوء، بعد أن توهموا أني طالب لجوء مثلهم، باعتبارهم قد سلموا أنفسهم للتو ولا يعلموا بالسياقات المتبعة لطلب اللجوء بإيران، وعندها أخبرتهم أني لست بلاجئ وليست لدي أية أجوبة عما يسألون، فأخذهم الفضول المعهود عند نزلاء السجون لسؤال أحدهم للآخر عن دواعي وأسباب سجنه، وسألوني عن سبب مكوثي بذلك السجن؟ فأخبرتهم بالخطوط العريضة لما كان من أمري مع الپاسدار الإيراني صادق، وتوقعت أن أسمع منهم كلامًا متعاطفًا يرثوا به حالي، فسكت أحدهم ولم يعلق بشيء لأنه كان مؤدبًا بتربيته كما كان يبدو، وسخر الآخر مني وقال بالحرف الواحد:

– هل أنت مغفل أم متخلف عقليًا؟

قلت له وقد تملكني الغضب الشديد:

– احترم نفسك من أجل أن أحترمك وإلا؟

قاطعني قائلاً:

– لا تفهمني بشكل خاطئ لأن الذي بدر مني كان بدافع الأسى عليك وليس تشفيًا بك، وأنا احترم فيك روحك القومية وأتأسف لك بالتأكيد، ولكني متعجب لأمرك، لأنه لم يعد أحد من كل الكورد بكوردستان أو بخارجها لا يعلم بسلوك وأخلاق أولئك الذين انتميت لهم، فأحدهم لا يتوانى عن بيع أبيه إذا ما دعته الحاجة لذلك، ثم تأتي أنت من بغداد من أجل تغيير هذا الواقع الكريه الذي مللناه بعد أن شبعنا من شعاراتهم الجوفاء، فمن أي عالم قدمت؟ ولأي زمان أنت تنتمي؟

قلت ساخرًا والمرارة بشفتيَّ:

– نعيب زماننا والعيب فينا، وما لزماننا عيب سوانا.. إذًا أنت ضد سلوك الناس بهذا الزمان، وذلك يعني أن العيب ليس في الفكرة التي أنشدها بالمشاركة على رفع الظلم عن كاهل شعبنا الكوردي، وإنني حقًا أتعجب عندما أسمع مثل هذا الكلام الذي قلته أنت ويردده الكثير من الناس بكوردستان، بحق أي شخص يتمسك بقيم الماضي الجميل سعيًا منه لتصحيح قيم الحاضر، التي أنت وأنا ننكرها، وكأن قيم الماضي قد أصبحت ورقة تالفة نتيجة لتقادم الزمن عليها وتعرضها لعوامل التعرية.

– أنا أكرِّر اعتذاري لك، لأن ما قلته لك كان بعفوية نتيجة حرقة فؤادي عليك بعد الذي سمعته منك وما حصل لك، فأنت في نظري أشبه بالإنسان البالغ الذي يرمي بنفسه من فوق جبل للهاوية من غير أن يعلم أن ذلك سيؤدي بفقدانه لحياته، وتلك بديهية يعلم بعواقبها ويخشاها حتى الطفل بعمر الخمسة أعوام، وكما أرى أنك قد رميت بنفسك إلى التهلكة وأنت بعز شبابك، انظر لنا، ألسنا كورد مثلك؟ لماذا نحن لم نسلك نفس طريقك؟ هل فقدنا الغيرة القومية؟ أم نحن محبطين من هذا الواقع الذي لن نستطيع أن نغير منه شيئًا؟ بالتأكيد نحن لازلنا نتمسك بكورديتنا، ولكننا لا نملك القوة بتغيير هذا الواقع المرير الذي أصبحت فيه القضية الكورية تباع وتشترى من أجل المصالح الشخصية لقادتنا الكورد، ولذلك نحن جئنا لإيران نطلب اللجوء فيها، وبعد أيام سنرحل لطهران لننضم لبقية اللاجئين بطهران، ومن ثم سنذهب للسويد لنصنع مستقبلاً زاهرًا لنا ولعوائلنا.. وانظر لنفسك وأنت ترمي بنفسك للجحيم؟ أليس كذلك يا أخي العزيز؟ وأرجوك اعذرني على صراحتي معك، وأكرر أن السبب هو حزني الشديد عليك وليس الشماتة بك بالتأكيد، وأرجوك أن تتدارك نفسك إن بقي

مجال لك أن تُصلح ما حدث معك، وتبحث عن مصلحتك كما يفعل كل الناس، وهذا أمر لم يعد عيبًا لتختزي منه..

– إن الطريق الذي سلكته وأوصلني للذي أنا فيه بهذه الزنزانة كان بملئ اختياري، وأنا لست نادمًا على كل ما حدث معي جراء ذلك، وتفاوت الرؤى بيني وبينك هو اختلاف بفهم أصل صراع الثقافات والعقائد الثورية، فكل واحد منا يفهمه بحسب ما يمليه عليه ضميره، فأنت ترى بعين المصلحة الشخصية، وأنا أرى بعين التضحية ونكران الذات، وشتان ما بين الانتهازية والثورية، واعلم يا أخي أنه كان بإمكاني أن أسلك نفس طريقك الذي يوصلني كلاجئ في السويد، وما أسهله، لأن إمكانياتي المادية تؤهلني لأصل لأي مكان أريد، ولكني رفضت الكثير من الدعوات التي قدمت لي من قبل بعض الأصدقاء الذين مروا بي عندما كنت أسكن بقرية گورگه يير من أجل مرافقتهم والهجرة للسويد عن طريق إيران، ولكني رفضت بسبب نيتي بمساعدة أهلي الكورد، لأني لو فعلت ذلك فإني سأستبدل غربتي الماضية ببغداد بغربة أخرى ستكون للأبد. فاذهبوا يا إخوتي واستمتعوا بحياتكم في السويد، ودعوني مع من بقي من الشرفاء لنضحي بأرواحنا التي سنقدمها رخيصة لكوردستان..

بهذا القدر من تلك المناقشة انتهى حوارنا الذي لم نعد الكرة للغوص بأعماقه مرة أخرى، حتى تمَّ ترحيل الاثنان بعد يومين لمجمع اللاجئين العراقيين بطهران على أثر انتهاء الإجراءات المتبعة بتلك الثكنة العسكرية، بتقديمهم لطلب الإقامة بغرض اللجوء.

ومن ناحية موضوعي فإنني قد تمَّ استدعائي لإدارة السجن بعد خمسة أيام من تاريخ اعتقالي، وكان صاحبي أغا قهرمان هو المترجم بيني وبين المحقق الذي جاء لذلك الغرض، وكان برتبة ملازم يتكلم الفارسية التي أصبحت أفهم الكثير

من مفرداتها، كانت أسئلته لي مهنية استخبارية بحتة، خالية من أي ضغينة شخصية أو تطرف ديني وكالآتي:

– ماهو سبب وجودك بإيران؟

– وجودي بإيران هو لغرض الالتحاق بالمكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة حليفكم مسعود البارزاني، وكتاب نقلي الذي أراه بين يديك يوضح ذلك.

– أمامي ورقة مكتوبة باللغة الكوردية ومختومة من قبل الحزب الديمقراطي لكوردستان من غير الإشارة لكوردستان العراق أو لإيران، كيف تفسر ذلك؟

– الحزب الديمقراطي لكوردستان العراق طبعًا..

– ولكن في إيران يوجد حزب مُعادِ للدولة ويقوم بعمليات تخريبية ويحمل نفس الاسم؟

– لا علم لي بهذا الأمر، وإني أتساءل: هل في شكلي أو طريقة كلامي ما يشير لكوني من الكورد الإيرانيين؟!.

– ليس بالضرورة أن تكون كورديًا إيرانيًا من أجل أن تكون ضمن هذا الحزب المُعادي، لأن بإمكان الكوردي العراقي الانتساب لهم أيضًا، لأنكم تؤمنون بالأمة الكوردية الواحدة.

– هذه المسألة حلها بسيط، فباستطاعتكم التأكد من جهة انتمائي من خلال سؤال مكتب الحزب الديمقراطي لكوردستان العراق في مريوان، ومكتبهم على بُعد خطوات منا، ولا أظنهم سينكرون ختم حزبهم الموجود بكتاب نقلي للمكتب السياسي، إضافة لاسم مسؤولي قادر قادر الذي وقَّع هذا الكتاب..

– أين تمَّ إلقاء القبض عليك؟

– في بيت صديقي شريف كچل بمريوان، وهو قيادي بارز ومسؤول لمجموعة بنچوين القتالية في كوردستان العراق، وهو من استضافني ببيته منذ اليوم الأول لوصولي لإيران..

– هل كنت منتسبًا للجيش العراقي؟

– نعم، لقد كنت منتسبًا للجيش العراقي بصفة فني ميكانيك بالقوة الجوية، قبل التحاقي بصفوف الحزب الديمقراطي بالقرب من مدينة السليمانية قبل حوالي الأربعة أشهر.

– ما هو جوابك على التهمة الموجهة لك باعتبارك جاسوسًا لدولة معادية في زمن الحرب؟

– هي تهمة كيدية عارية عن الصحة ومن غير إثباتات، لفقها لي الپاسدار صادق على أثر نقاش حاد حصل بيني وبينه بسبب رفضي قبول دعوته للالتحاق بحزب الدعوة وقوات بدر في الجنوب، لأني پيشمرگة كوردي وأعمل ضمن نشاطي بكوردستان، ولا علاقة لي بأي تنظيم قتالي آخر سواء عراقيًا كان أو إيراني..

– التهمة تُشير إلى أنك كنت برتبة ملازم باستخبارات الجيش العراقي، في الوقت الذي أنت تذكر أنك كنت برتبة نائب ضابط قوة جوية، فما قولك بهذا؟

– عندما أصبحت پيشمرگة ضمن صفوف الحزب الديمقراطي منحني مسؤولي قادر قادر كنية فخرية واسم حركي، وتحولت لأكون ملازم سرچل، وليس ملازم هشام، ولكم أن تتأكدوا من ذلك، وهو أمر ليس بالصعب عليكم، باعتباركم دولة ومسؤولي قادر قادر هو أحد حلفائكم.

– حسنًا، لقد أنهيت ما عندي من أسئلة، وسأعرض أجوبتك على المسؤولين من أجل اتخاذ القرار بشأنك، شكرًا لك على تعاونك معي، ولا تحزن لهكذا

مسألة، فهي أمور روتينية بسيطة قد تحدث مع أي شخص قادم من العراق حتى لو كان من حلفائنا، وماهي إلا أيام وسينتهي كل شيء لتعود لحياتك السابقة.

ثم نهض من كرسيه وهو يرسم على شفتيه ابتسامة لم أعرف لها تفسيرًا بحينها لأنها لم تكن تلائم ما كانت عيناه تقول، ثم جمع أوراق التحقيق من أمامه، وصافحني مودعًا إياي عائدًا من حيث أتى، وبقيت مع صديقي ومترجمي أغا قهرمان وحدنا في الغرفة، وسألته على الفور إن كان المحقق جادًا في أقواله قبل أن يغادرنا بقليل.. فقال لي همسًا: كل شيء جائز في عهد دولة الملالي، وبعد نظرة عتاب مني كانت تدعوه للكف عن البحث بمثل تلك المواضيع الخطيرة، سكت الرجل من فوره وأغلق الموضوع.. فقلت: أغا قهرمان أرجعني إلى زنزانة سجني من فضلك..

في الزنزانة أخذت أقلب ما سمعته من بصيص أمل ورد على لسان المحقق قبل مغادرته لنا، فهل نهاية هذا الكابوس هي حقًا قريبة؟ ولمَ لا تكون قريبة؟ والرجل قد عاملني بمنتهى اللطف والاحترام إلى درجة لم أكن أتصور أني قد أحظى بمثلها لو كنت موقوفًا في العراق على ذمة أية تهمة سخيفة بإحدى مراكز الشرطة في بغداد، وإذا كان ظني ليس بمحله فما هو السبب الذي يجبره على تقديم وعد زائف سيتكشف بعد عدة أيام؟ أسئلة وأجوبة عديدة راودتني حينها، وتركتها للأيام القادمة التي تكشف فيها كل شيء..

بعد مضي يومين سمعت من داخل زنزانة سجني ضوضاء لجمهرة من الناس عند الشارع، فوثبت لأمسك بيدي قضبان شباك الزنزانة، ثم رفعت نفسي للأعلى من أجل أن أتبين حقيقة ما كان يجري في الخارج.. فوجدت الناس وقد اصطفوا على جانبي الطريق وهم يحيوا رتلاً من سيارات البيك أب العسكرية

العائدة لقوات الپاسداران، فظننت أن الأمر لا يعدوا سوى استعراضًا لقواتهم العسكرية المتجهة إلى ساحات الحرب، وما أكثرها بتلك الأيام، فنزلت من أجل أن تستريح يداي قليلاً لأواصل بعدها، ثم وثبت مرة أخرى لكي أتفحص ما كانت تحمله تلك العجلات العسكرية، فصعقت لبشاعة ذلك المشهد المروع الذي بقيت صورته مطبوعة بمخيلتي حتى يومنا هذا..

لقد شاهدت في تلك السيارات الحوضية المكشوفة جثثًا لكثير من الرجال القتلى وهي مرمية بعضها فوق بعض وكأنها خرفان أو عجول وليست أجسادًا أدمية، قد تمَّ ذبحها في المجزرة وهي في طريقها لكي تسوق لمحلات القصابة، وكان الناس على جانبي ذلك الطريق يهتفون من غير حماسة بأصواتهم المخنوقة بحياة الثورة الإسلامية وقائدها الخميني.. فبقيت أتمعن بأسف بالغ على ذلك المشهد المروع من أجل أن أتعرف على هوية الضحايا.. حتى نادى علي قهرمان من خلف قضبان باب زنزانتي يطلب مني أن أنتهي عن النظر للخارج.. فنزلت، وسألته والأسى يطحن قلبي على تلك المشاهد البربرية:

– ما هذا الذي يحصل بالخارج يا قهرمان؟! ومن هم أولئك القتلى يا ترى؟

فقال بصوت منخفض:

– إنهم پيشمرگة الحزب الديمقراطي لكوردستان إيران، وقد قتلهم الپاسداران على أثر هجوم مباغت شنوه على مناطقهم بمساعدة من جماعة البارزاني.

قبل أن يكمل حديثه أغرقت عيناي بالدموع على الرغم من محاولتي لحبسها وذلك حزنًا وألمًا عليهم، فأدركني قهرمان قائلاً:

– كفكف دموعك قبل أن يراك أحدهم ويلحقك بمن رأيتهم قتلى بالخارج..

فتراجعت عن الباب وتوجهت إلى ركني بالزنزانة، وأنا أجر خطاي وعيوني مسمرة إلى سقف الغرفة، أسأل: لماذا يا ربي؟

كان عزائي الوحيد لرفاقي الشهداء، نعم رفاقي الذين تجمعني وإياهم وحدة الهدف والدم والوجدان؛ هو رحيلهم وهم يقاتلوا الطغاة من أجل الدفاع عن كل القيم النبيلة للشعوب الكوردية، وكأن لسان حالهم كان يقول: لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم، وتنهدت تنهيدة مصحوبة بحسرة عميقة.. آه يا كوردستان كم أنت عظيمة بأبنائك البررة من الذين قدَّموا ولا زالوا يقدمون أرواحهم لتكون قرابين على مذبح حريتك.. وكم أنت عظيمة بشعوبك الصامدة رغمًا عن أنف كل الخونة والعملاء، ممن ادعوا بأنهم من أبنائك وهم في حقيقة أمرهم قد رموا أنفسهم بالدرك الأسفل من الرذيلة..

لقد كان لوقع تلك المجزرة الرهيبة شأنًا عظيمًا بداخل نفسي، لأني شعرت حينها وأنا بذلك الحال البائس؛ أني قزمًا صغيرًا أمام تضحية أولئك العمالقة الأبطال وهم سائرون في بعثة الشهداء، وأصبحت أهتف من أعماقي: يا ليتني كنت معكم، ولأني كنت أدرك أن ذلك لم يتحقق لأني لم أقاتل بجانبهم ثم أستشهد معهم، تمنيت قائلاً: يا ليتني ألحق بهم على طريق الشهادة، وتبًا للحياة بلا كرامة ولا حرية...

بعد انقضاء تلك المظاهرة البربرية وتفرق جموع الناس، ساد الهدوء بذلك الشارع، وجاءني قهرمان الذي كان بنوبة خفر بذلك اليوم بحجة إحضار الطعام، وكان الوقت حينها يميل للغروب، وأخبرني أن الپاسداران قد أجبروا الناس المتواجدين في الأسواق حينها على الاصطفاف على جانبي الطريق من أجل ترديد هتافات التأييد لهم، ومن أجل إدخال الرعب أكثر بنفوس سكان مريوان، فإن الپاسداران قد علقوا جثة زعيم بعثة الشهداء من پيشمرگة الحزب الديمقراطي لكوردستان إيران، على سارية إحدى الرافعات العالية، من أجل

إرهاب جميع من يراه في تلك البلدة التي غالبية سكانها هم من الكورد الإيرانيين، وعلى مدى ثلاثة أيام ابتداء من ذلك اليوم..

أخبرني أيضًا أنه قد شاهد مسؤولي الحزب الديمقراطي وهم يصطفوا ويهتفوا بحياة الخميني من أمام واجهة مقر حزبهم، في الوقت الذي قرأت بأدبيات كراريسهم التي كانت تسوق لأمثالي من المغفلين نفس المبادئ التي استشهد من أجلها هؤلاء الأبطال في بعثة الشهداء، ناهيك عن أن هناك معلومة مؤكدة قد شاعت بين الناس أن بعض البيشمرگة لحزبنا الديمقراطي من الذين كانوا بإجازات في مريوان قد تمَّ زجهم ليشاركوا بتلك المجزرة، وتلك خطوة تؤكد سوء ظني فيهم وخيبة أملي بهم، ولو قدر لي أن أكون شاهدًا على تلك المجزرة وأسأل پيشمرگة حزبنا وپيشمرگة بعثة الشهداء عن أهداف كل منهم لأجابوني بنفس الهتاف: يحيا الكورد وتحيا كوردستان، ولكن دائمًا للقيادات حسابات أخرى، فمنها من يرفع الشعارات وهو مؤمن بها ويعمل من أجلها، ومنهم من يرفعها للتموية ويعمل بالضد منها!..

عندما حل الليل بظلامه؛ انزويت بركن زنزانتي، جلست مدليًا برأسي لحجري، وبكيت بحرقة مكبوتة، وكانت دموعي تنساب من عيوني كما تنساب دموع الشمعة وهي تحترق بصمت على أبطال بعثة الشهداء وما كان من أمرهم، بكاء فيه شجون لم أبكِ مثله حتى عندما كنت طفلاً صغيرًا، وحينها قلت لنفسي: من الآن فصاعدًا يتوجب علي التوقف عن ملامة رفاق الأمس جراء تخليهم عني لأنهم منغمسون بالرذيلة حتى آذانهم، والاعتماد على النفس بعد الاتكال على الله، وهو خير معين لي بتلك المحنة التي كنت ومن كل قلبي أتمنى الشهادة فيها، للخلاص من الفرس الأوغاد بكل أشكالهم ومسمياتهم، لأن جُلُ ما كان يؤرقني فعلاً هو فكرة أن ينتهي بي الأمر لأصبح أسيرًا في عاصمة الشر

والعدوان، طهران اللئم والعنصرية الفارسية، حيث الذل والمهانة حتى انتهاء الحرب، لأُسلم بعدها إلى الحكومة العراقية التي بدورها ستسألني عن كيفية أسري وأنا الهارب من وحدتي العسكرية في قاعدة الوليد الجوية على الحدود الأردنية، بعيدًا جدًا عن جبهات القتال المفتوحة بالحرب مع إيران..

وعليه فإني كنت أتمنى أحد أمرين، إما الحرية وهي على ما كان يبدو أنها مستحيلة المنال، أو الشهادة، وما دونها هي فكرة مرعبة وكابوس مخيف، باعتبار أن الأمنيتين كانتا تحققان لي الخلاص من تلك القيود والزنازين التي كانت بانتظاري، وإن كنت بمجمل تصرفاتي بعد اعتقالي لم أدفع بالأمور لتتجه إلى إحداها، وإنما تركت ذلك لعواقب الأمور لتسير وفقًا لما سيسوقه القدر الذي سيكون طبعًا مثقل بالمفاجأت غير المتوقعة...

لقد كنت في تلك الفترة العصيبة بأمس الحاجة للحديث إلى أي شخص آخر بأي موضوع من أجل تبديد ما كنت أشعر به من حزن وملل وأنا وحدي بتلك الزنزانة أنتظر ما سيكون عليه مصيري، وشاءت الصدفة ونحن في ذلك الوقت من السنة الهجرية وحلت علينا ذكرى عاشوراء التي استشهد فيها سيدنا الحسين، وكانت الحكومة الإيرانية تُحيي تلك الذكرى بكل طقوسها المعروفة عن طريق كافة قطاعاتها الرسمية والشعبية، وذلك يستدعي بحسب وجهة النظر الرسمية نزول أفراد من قوات الجيش والپاسداران والپسيج ومنظمات أخرى إلى الشارع، والاصطفاف بطوابير من أجل اللطم على الصدور إحياءً لذكرى استشهاد سيدنا الحسين، الذي هو حتمًا بريء من هؤلاء الفرس، الذين هم أبعد ما يكونوا مسلمين يتبعون الرسالة المحمدية وسيرة آل بيت الرسول الكريم، الذي ليس له من ذكر بكل أدبياتهم الدينية في التشيع الصفوي، وكأنه دين آخر لا يشبه الإسلام المحمدي الحقيقي بشيء سوى بالاسم فقط..

ولأن صاحبي أغا قهرمان هو من ضمن تلك التشكيلات، فإنه كان ملزمًا أن ينزع عقله من رأسه ويضعه على الرف ليلطم جهارًا في الشوارع، وهذا ما كان يرفض القيام به، الأمر الذي دعاه لأن يتملص منهم من خلال إخفاء نفسه بداخل زنزانتي حتى انتهاء فترة ذلك الهيجان الجنوني، وكانت فرصة حسنة لي للتباحث معه بحرية حول بعض الأمور التي تخصني بعيدًا عن أذان من قد يسمعنا بتلك الثكنة العسكرية، لأني كنت قد أمنت جانبه باستثناء تلك الحوارات التي تنتقد تفاهة وسفاهة حكم الملالي بإيران، الأمر الذي دعاني لأكون ببعض المرات عندما كان يحلو له أن يذكرهم بسوء هو الإصغاء فقط دون أن أعلق بشيء على ما كان يذكره بهذا الصدد..

تحدثنا بحرية بمواضيع شتى حتى سحبته للحديث بشأن موضوعي وما استجد منه؟ فقال: هذا ما كنت أنوي ذكره لك بكل أسف، لأني سمعت أن هناك جنديين من ثكنة الحراسات قد تبلغا باقتيادك إلى مديرية الاستخبارت العسكرية بمحافظة سنندج بوقت مبكر من صباح الغد.. وصدق قهرمان بما قاله لي لأني صحوت في الغد على مناداة الحراس لي مبكرًا من أجل الاستعداد للمغادرة، وعند خروجي من الزنزانة وضع الحارسان اللذان كانا بانتظاري القيود بيداي، وحينها تلفت يمينًا وشمالاً أتفقد صديقي أغا قهرمان لكي أودعه وأشكره على كل ما صنعه من أجلي فلم أجده، وأظنه قد تعمد إخفاء نفسه عني بتلك اللحظات خشية من إظهار تعاطفه معي بذلك الموقف المؤثر، وهو أمر محظور على كل من يعمل بتلك المهنة، خصوصًا عندما يكون السجين من دولة معادية ومتهمًا بالتجسس...

مضيت مع الحرس الذين أظهروا في البداية بعض الخشونة بالتعامل معي عندما أمسك كل واحد منهم بإحدى يداي، وأقتادوني إلى الخارج وكأني قد تمَّ

القبض علي للتو واللحظة، وليس قبل حوالي عشرة أيام، ولم أجد حينها كلمة تناسب ذلك الموقف إلا بقولي: حسبي الله ونعم الوكيل، إليه فقط أشكو ضعفي وقلة حيلتي، وله أنيب أمري بكل ما كان وسيكون.. وعند وصولنا للشارع العام بتلك البلدة وجدته خاويًا من المارة بسبب خروجنا المبكر، وحينها وقع نظري على إحدى اليافطات السوداء المعلقة على جدار أحد دكاكين السوق بمناسبة يوم عاشوراء الذي تمَّ إحياء ذكراه باليوم السابق، وكانت مكتوبة باللغة العربية وقد نسب ما كتب عليها من قول إلى سيدنا الحسين ومفادها كالآتي: إذا كان دين محمد لن يستقيم إلا بقتلي، فيا سيوف خذيني..

هزني ذلك القول لأنه جاء متطابقًا مع المحنة والحال البائس الذي كنت عليه، فاستهويتها لما كان لها من وقع خاص على نفسي، خصوصًا المقطع الثاني منها: فيا سيوف خذيني، لأنه كان يرمز للخلاص من الدنيا وأنا سائر لمصيري المجهول وكأنني بذلك كنت أريد أن أقول: إذا لن يستقيم سلوك رفاقي الخونة إلا بعد مقتلي، فيا سيوف خذيني وعجلي بموتي، عسى أن يستحوا من أنفسهم وتصحى ضمائرهم، ولكن الواقع شيء والتمني شيء آخر فهم سيبقوا على نفس حالهم المخزي حتى لو حصدت السيوف رؤوس الملايين من أمثالي..

مضيت بطريقي مع حراسي بطرقات البلدة بإحباط تام وخطى مثقلة، وأنا أردد متغنيًا: فيا سيوف خذيني، حتى وصلنا لكراج النقليات لنستقل الحافلة المتجهة إلى محافظة سنندج جنوبًا، وعند وصول الحافلة إلى أطراف تلك المدينة حيث السيطرة العسكرية، اصطففنا خلف رتل طويل من السيارات بمختلف أشكالها، العسكرية منها والمدنية، وكانت جميعها تنتظر الإشارة للبدء بالمسير، وبعد انتظار دام حوالي الساعة انطلق رتل السيارات وقد تقدمته قوة من مفرزة عسكرية مسلحة من أمامها وأخرى من خلفها، ولدى استفساري عن دوافع تلك

الظاهرة من أحد حراسي قال لي: إن هذا الإجراء يتبع خشية من مهاجمة المخربين الكورد لنا، ويقصد البيشمركة الكورد الإيرانيين الذين قد يتعرضوا للسيارات على ذلك الطريق، الذي عادة لا يخلو من العجلات العسكرية، أو عناصر الجيش الذين يستقلوا سيارات الأجرة كما كنا نفعل نحن من خلال صعودنا بتلك الحافلة المدنية.

حينها شعرت بغبطة أثلجت قلبي ونشوة كانت تحتضر بضميري جراء الممارسات الخيانية لرفاق الأمس، وانبعث الأمل في نفسي من جديد باعتبار أن قضيتنا ككورد لم تمت ولازال هناك بعض من أشراف الكورد، الذين ينتصرون لمبادئهم بحقهم القومي المسلوب، من غير أن أخشى على حياتي من الموت أو الأذى الذي قد يصيبني لو أننا تعرضنا إلى واحدة من تلك العمليات الهجومية التي ينفذها أولئك الأبطال على أرض كوردستاننا التي استولى عليها الفرس في الجزء الشرقي منها والذي يتضمن محافظة أرومية من الشمال، نزولاً إلى محافظة مهاباد ثم إلى محافظة سنندج ثم إلى محافظة مهران ثم إلى محافظة كرمنشاه حتى عيلام في أقصى الجنوب من الجناح الشرقي لكوردستان المجزئة...

لقد كان الطريق إلى محافظة سنندج الكوردية التي يسميها بعض الكورد سِنَه، على عكس ما توقعته عندما كنت أظن أننا سنقطعه خلال ساعتين من المسير، في الوقت الذي وصلناها ظهرًا بعد مسيرة متباطئة، عبر انبساط بعض السهول ووعورة العديد من الجبال، وكانت أولى المشاهد التي شَدت نظري أثناء نزولنا إليها؛ هو موقعها وسط الجبال التي تحيط بها من كل ناحية، فتذكرت حينها بشوق وحنين مدينتي الحبيبة السليمانية وهي عروس المدن بكوردستان، وكيف كنت أنزل إليها أثناء زياراتي المتكررة من المرتفعات الواقعة خلف

السيطرة العسكرية بطاسلوجة على طريق بغداد – كركوك، فشتان ما بين الأمس واليوم، وما بين سنندج والسليمانية، اللتان يقطنهما شعب واحد من نفس الجذور الكوردية، ويحكمه أناس من نقيضين..

فهناك في السليمانية يتواجد حزب البعث العربي وهنا بسنندج يتواجد حزب الله الفارسي، وهناك الجيش الشعبي وهنا حراس الثورة وهناك مقرات الاستخبارات العسكرية وهنا مقر الاطلاعات، وهناك ثكنات الجيش العراقي وهنا ثكنات الجيش الإيراني، وكذلك نفس الأمر ينطبق على الممارسات الوحشية ضد الكورد في كل من سوريا وتركيا، وحتى في أذربيجان التي يسكنها الكثير من الكورد، وشيء واحد كان يجمع ما بين كل هذه المسميات والعناوين بممارساتها الخائبة ضد أي توجه قومي كوردي؛ هو الخشية من تحرر الأمة الكوردية بأجزائها الأربعة وقيام دولتها على كامل ترابها القومي.

من خلال استعراضي لتلك المظالم التي تعرض لها شعب كوردستان الذي أُلحق إداريًا بكل تلك الدول، وما تعرض له العراق الذي كان للكورد المشاركة الفاعلة بتأسيس دولته الحديثة، من احتلال أمريكي بغيض، قفزت لذهني فكرة تحدث بها قبلي كثير من المنصفين بشعبنا الكوردي في العراق، مفادها أن الرئيس العراقي صدام حسين ما كان سيلاقي نفس مصيره عندما وقع بقبضة الاحتلال الأمريكي بعد أن حاربهم بدفاعه عن العراق ثم أُغتيل بتلك الطريقة البشعة، لو أنه قد تفهم خلال فترة حكمه القضية الكوردية بشكل حقيقي وليس صوري، من خلال بعض الاتفاقات الهزيلة مع الأحزاب الكوردية، وكان الأجدر به أن يتعايش مع الحقوق القومية للكورد والشعب الكوردي وليس مع السياسيين، ليطبق ذلك التعايش عمليًا وليس من خلال القمع لغالبية شعبنا الكوردي، وبذلك فإن شعبنا الكوردي في العراق كان حتمًا سيحفظ له الجميل وينصره عندما ضاقت به

السبل، ليخبئوه بجبال ووديان كوردستان، وأثنائها لن يستطيع كل أعدائه مجتمعين أن يصلوا إليه، ولا أستبعد أن كوردستان حينئذ ستكون منطلقًا له لتحرير كامل العراق من الاحتلال الأمريكي الإيراني..

نفس الأمر كان سينسحب على بقية خصومه من العراقيين الذين تضرروا من سياساته كما تضرر الشعب الكوردي، لينصروه بمحنته لو أنه فتح باب الحوار معهم بجدية.. طبعًا باستثناء أولئك الذين تربوا بطهران من حزب الدعوة وقوات بدر التي هي الذراع العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذي تأسس بإيران بقيادة إيرانية مللية، لأنهم بلا قضية سوى بعض الادعائات بظلم النظام للشيعة، وهذا لم يكن حقيقيًا لأن حزب البعث لم يكن طائفيًا وتصنيفه للعراقيين كان بحسب قومياتهم، وليس بحسب عقائدهم المذهبية ومدى ولائهم لنظام حكمه، والدليل هو أن أغلب عناصره الحزبية كانوا من الشيعة العرب.

وتلك تفاصيل سأتي على توضيحها بمراحل لاحقة من رحلتي هذه، باعتبارهم كانوا ولا زالوا أدوات خبيثة بيد القيادت الإيرانية، من باب الطاعة المذهبية العمياء لهم بعد أن اشتركوا في القتال مع الفرس ضد بلدهم، تحت شعار تصدير الثورة الإسلامية وتحرير كربلاء، وهو شعار كان معلن بشكل واضح من قبل الملالي الفارسية النتنة، ويحاول بعض الخبثاء الآن طمس تلك الحقيقة لإظهار أن العراق كان هو من اعتدى على أسيادهم الإيرانيين، عندما تجرأ أكبر رأس مللي خبيث فيهم إلى التصريح علنًا بضرورة تعويض إيران بمبلغ مائة مليار دولار عوضًا عن ما خسرته في حربها ضد العراق على مدى ثمانية أعوام من القتال الذي استمر بسبب تعنت الفرس بإطالة أمد الحرب، وهو أمر لم يجرؤ أن يطالب به حتى الإيرانيين أنفسهم، وكأنه بذلك التصريح كان يزايد

على الإيرانيين بأصوله الفارسية التي كان يستحي من إعلانها بنفس الوقت، منوهًا إلى أن ذلك القزم الفارسي الذي يدعى بعبد العزيز الأصفهاني الطباطبائي الحكيم، عندما أدعى خاسئًا بأنه يمثل كل شيعة العراق من العرب، وهذا غير صحيح لأنه كان يمثل ثلة من الرعاع إيراني الهوى..

وولائهم الرخيص هذا لأمة الفرس اللعينة لم يكن من باب الانتهازية المنافعية، كما كان عليه قادة الحزب الديمقراطي الذين أداروا ظهورهم لإيران بمراحل لاحقة، بعد أن انتفت الحاجة من إيران بزمن الاحتلال الأمريكي للعراق، عندما تحالفوا مع قوى عالمية لها السطوة على كامل المنطقة..

وصلنا إلى كراج النقل بوسط محافظة سنندج، ومن هناك ركبنا سيارة أجرة من أجل الذهاب إلى معسكر الجيش الإيراني الكائن بإحدى جوانب تلك المدينة، وبعد أن دخلناه توجهنا فورًا إلى مقر مديرية الاستخبارات الإيرانية المعروفة بالاطلاعات الذي كان على شكل عمارات شاهقة وحديثة البناء، وكنت حينها قد قررت التخلي مؤقتًا بالإعلان عن توجهاتي القومية كما كانت ظروفي تقتضي، وانتهجت أسلوبًا جديدًا بتعاملي مع كل من سيحقق معي من عناصر الاستخبارات العسكرية الإيرانية، وذلك بالعودة لروحي العسكرية، باعتباري عسكري عراقي في بلد معادي، ويجب علي أن أتصرف كأي مقاتل يجد نفسه متوغلاً في عمق أراضي عدوه ليعمل بكل جهده من أجل الرجوع لوطنه من أجل أن لا يقع في الأسر.

بعد الانتظار لفترة وجيزة في صالة الاستعلامات، تمَّ استدعائي من قبل مدير الاستخبارات الذي كان برتبة عقيد، التي هي سرهنك باللغة الفارسية ويدعى توكان، فاقتادوني لمكتبه في إحدى الطوابق العلوية بذلك المبنى بعد أن رفعوا القيود من يدي، وعند دخولي عليه أخذ الرجل ينظر لي من تحت نظاراته وكان

في العقد الخامس من عمره، أخذ يتفحصني مليًا من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، وأنا لم أزل مرتديًا الزي الكوردي للپيشمرگة، ثم سألني عن اللغة التي أجيد التكلم بها؟ ولأني وجدت فيه صفة الشخص الهادئ فذلك شجعني لأن أتكلم معه ببعض ما كنت أعرفه من مفردات اللغة الإنكليزية التي تعلمتها أثناء الدراسة، ومن خلال عملي مع الخبراء الأجانب العاملين في القوة الجوية، لاعتقادي بأنه ضابط قديم من أيام نظام حكم الشاه لإيران، وذلك يعني بأنه حتمًا يعرف الإنكليزية إن لم يكن يجيدها، وتلك هفوة مني لم أتحسب لعواقبها، فقلت له بالإنكليزية:

– إنني أستطيع التفاهم باللغة الكوردية، إضافة إلى العربية التي أتكلمها بطلاقة كوني كنت أسكن في بغداد منذ ولادتي..

فأجابني بصوته المنخفض الذي بالكاد كان يُسمع وبلغة إنكليزية سليمة:

– حسنًا.. سأدون لك بعض الأسئلة وأريدك أن تجيبني عليها بكل صدق وصراحة، وبالمقابل فأنا سأتكفل بإطلاق سراحك وإيصالك إلى الحدود العراقية لتعود إلى بيتك جزاءً على صدقك معي...

فقلت دون تردد:

– حسنًا أنا أعاهدك بقول الصدق ولا شيء سواه..

عندها انتهى بيننا ذلك الحوار المقتضب باللغة الإنكليزية، واصطحبني اثنان من جنوده أرسل بطلبهما إلى غرفة مجاورة لمكتبه، وكانا من عرب الأحواز، لغرض تدوين إجاباتي على أسئلة العقيد توكان، فقالا لي بعد أن اختلينا ببعض:

– هل صحيح أنك تجيد التكلم باللغة العربية؟

– نعم.

– إننا من سكان مدينة المحمرة في الأحواز، ونحن هنا من أجل تأدية الخدمة العسكرية الإلزامية والترجمة لكل من يؤتى به أسيرًا من أفراد الجيش العراقي.

ثم أضافا لكلامهما بعض عبارات التذمر من الوضع السيء الذي كان سائدًا بإيران، بقولهما:

– لقد ابتلينا بهؤلاء الفرس الذين تحكموا برقابنا عقب احتلالهم لإمارتنا الأحوازية العربية الخليجية!

نظرت إليهما متعجبًا لأن ذلك الكلام لا يقال لمن هو بمثل وضعي البائس، وقلت في نفسي: هل هذان الشابان يعتبراني غبيًا إلى هذا الحد الذي ينتظران مني بأن أتعاطف مع ما صرحا به لأشاركهما التذمر من الفرس وأنا متهم بالتجسس عليهم؟! وعلى أية حال فإن صدري أصبح رحبًا وكبيرًا يستوعب كل ما هو غير عقلاني من المفارقات العجيبة والغربية التي وجدتها بهذا البلد اللعين، فالتجربة وإن كان عمرها قصير لكنها علمتني الكثير من الدروس بكيفة التعامل مع كل شيء غير طبيعي ولا منطقي، وعشمي بأن يعذرني أهل الأحواز العربية من الذين قد يطلعوا على حكايتي هذه، لأن الظرف حينها لم يكن يسمح لي بمجاملتهم أو التصديق بحسن نواياهم.. فقلت من غير أن أعلق على ما قالاه وكأني لم أسمعهما:

– هل بالإمكان المباشرة بالرد على أسئلة العقيد توكان؟

– حسنًا..

ونظر أحدهما للآخر بدهشة، من غير أن يحزرا أني كنت متعاطفًا معهما بشدة لقضية إمارتهم الأحوازية العربية المحتلة من قبل الفرس، إلى الحد الذي كنت أرغب فيه بمعانقتهم وضمهم لصدري، ولكن رحم الله أمرئ عرف قدر نفسه.

وبدأ التحقيق:

– ما هي رتبتك العسكرية؟ وأي منصب كنت تشغل في الجيش العراقي؟ إلى أية وحدة كنت تنتسب؟ في أي قاطع عمليات تمَّ أسرك؟ وكيف؟

– رتبتي قبل الهروب من وحدتي العسكرية كانت نائب ضابط بصنف القوة الجوية.. وحدتي العسكرية كانت هي قاعدة الوليد الجوية في منطقة (H3) على الحدود الأردنية.. تمَّ توقيفي في بيت صديقي شريف كچل بمريوان وهو قيادي بارز بالحزب الذي أنتمي له كپيشمرگة مقاتل، بقيادة حليفكم مسعود البرزاني، من قبل أحد ضيوفه من قوات الپاسداران واسمه صادق، على أثر نقاش سياسي دار بيننا هناك...

– ما هي المهمة التي جئت من أجلها إلى إيران؟ هل هي من أجل التجسس؟ أم القيام بأعمال تخريبية؟ ومن هم شركائك داخل إيران؟ اذكرهم بالاسم الكامل، واذكر عناوينهم؟

– لقد جئت إلى إيران من أجل الالتحاق بالمكتب السياسي لحزب مسعود البارزاني وهي حقيقة أستطيع إثباتها، وكذلك إثبات أن هذه التهمة كيدية وعديمة الصحة، كان قد لفقها ضدي الپاسدار صادق لأني رفضت رغبته بإلحاقي بتنظيمات حزب الدعوة وقوات بدر، من التي هي عاملة مع قوات الپاسداران في الجنوب..

وأخذت أسرد جميع التفاصيل التي لها علاقة بقدومي لإيران، وضمنها ملابسات اعتقالي بتلك التهمة الكيدية الجاهزة.. وبعد تدوين إجاباتي التي ترجمت للغة الفارسية على تلك الأسئلة النارية، تم إرسال الأوراق التحقيقية إلى مكتب العقيد توكان من أجل أن يطلع عليها، وجلسنا ننتظر، وأثناء ذلك أخذت أسأل نفسي: هل هذا العقيد مخبول بعقله ليسألني تلك الأسئلة المدمرة وهو بنفس الوقت يعدني أنه سيطلق سراحي إذا ما أجبته بصراحة؟ أو إنه يعتقد أني أبله لكي أجاريه وأعترف له زورًا على نفسي أني فعلاً كنت جاسوسًا، طمعًا بوعده الذي سيطلق فيه سراحي، لأذهب لحال سبيلي وأعود للعراق، والحرب كانت

دائرة برحاها؟! أمور وجدتها جدًا غريبة ومختلفة عن تلك التي دارت معي أثناء التحقيق في مريوان...

بعد انتظار ليس بالطويل استدعاني العقيد توكان إلى مكتبه، فذهبت إليه بصحبة أحد المترجمين العربستانيين، وقد تحضرت جيدًا لما سيقوله من كلام كنت قد توقعته، فقال لي بالفارسية بصوته المعهود المنخفض جدًا وبأعصاب باردة وهو يبتسم بخبث:

– لقد اتفقنا على قول الصدق والصراحة، وما قلته بأجوبتك هو هراء بهراء..

– لقد عاهدتك أن أجيبك على أسئلتك بصدق، وهذا ما فعلته وأوفيت به عهدي، على الرغم من أن أسئلتك كانت بعيدة جدًا عن ما حدث معي بمريوان من قبل الپاسدار صادق، الذي هو أساس التهمة الكيدية التي بسببها أمثل أمامكم، كما أن قول الحق ليس بالضرورة أن يكون مطابقًا لما يعتقده جنابكم ليكون صدق...

– إنها أسئلة روتينية تُطرح على كل من يقع في الأسر، بموجب المواثيق الدولية، ولكني من باب الفضول بودي أن أعرف إجابتك على سؤال آخر...

وقد فاجأني بسؤال فاق كل توقعاتي الاحتراسية، فقلت ولم أكن حينها على دراية بأنه سيلزمني الحجة بعد أن أوقعت نفسي بغلطة قابلة للتأويل، وكما يقال إن غلطة الشاطر بلوة:

– تفضل يا سيدي ولكن ليسمح لي جنابكم قبل أن توجه سؤالك لي، أن أوضح أنني لست أسير حرب بل معتقل بتهمة كيدية، وبالتالي لا شأن لي بالمواثيق الدولية وما شرعته لأسرى الحرب.

فقال بهدوئه المعهود:

– لا عليك، فسؤالي لن يكون بهذا الاتجاه، في إحدى أجوبتك ذكرت أنك كنت برتبة نائب ضابط، وما أريد قوله لك هو أن كثيرًا من الضباط العراقيين الذين حققت أنا شخصيًا معهم بعد أن وقعوا بالأسر وبعضهم كانوا برتب عالية، لم يكونوا على معرفة باللغة الإنكليزية بالقدر الذي كلمتني أنت فيه، فهل يعقل أن النائب الضابط على إلمام بالإنكليزية والضابط الذي هو أكاديمي وبرتبة أعلى لا يفقه منها شيئًا؟! فسر لي هذه المفارقة؟.

قلت مستدركًا الهفوة التي بدرت مني ولم أعمل حسابًا لعواقبها:

– نحن الفنيون العاملون في القوة الجوية وأنا أحدهم، نعرف الكثير من المفردات اللغوية الأجنبية، فبعضنا على إلمام ببعض المفردات الإنكليزية وبعضنا الآخر بالروسية وذلك بحكم عملنا الميكانيكي المشترك مع المهندسين الروس والأسبان والفرنسيين وغيرهم من الخبراء الأجانب العاملين بصناعة الطيران، وأفترض أن نفس الشيء ينطبق على فنيين القوة الجوية الإيرانية إذا ما قيست قدراتهم المعرفية باللغات الأجنبية بضباط إيرانيون من الصنوف الأخرى بالجيش الإيراني.

فقال متبسمًا وكأنه أراد أن يوهمني أنه قد اقتنع بوجهة نظري:

– حسنًا بإمكانك أن تنتظر بغرفة المترجمين ريثما أنظر بأمرك، أو قد أستدعيك مرة أخرى..

أخذوني إلى الغرفة المجاورة من غير أن أتفاءل بأي خير قد أحصده بعد تلك التحقيقات السقيمة، فهؤلاء الفرس على درجة عالية من المكر والدهاء المصحوب بالكذب، إلى الحد الذي لا يستطيع شخص بسيط مثلي التكهن بما كانت تضمره نفوسهم، وما يجول بخاطرهم وهم متخفون خلف تلك الأقنعة المتبسمة زورًا ونفاقًا، على الشكل الذي لم تكن ملائمة وما كانت تصرح به عيونهم التي تفيض بالحقد والكراهية.

بعد فترة وجيزة من الانتظار دخل علينا اثنين من الجنود بكامل سلاحهم من أجل اقتيادي، فمضيت معهم من غير أن أسألهم إلى أين المسير، لأني كنت أعلم بحدسي أنه لا جدوى من هكذا سؤال في ظرف أسود كذلك اليوم الأغبر... اقتادني الحراس إلى خارج مبنى مديرية الاستخبارت العسكرية الإيرانية وهناك كانت إحدى العجلات العسكرية بانتظارنا فاستقليناها بصمت، ومضينا في طريق أوصلنا إلى ناحية أخرى من ذلك المعسكر حيث السجن الذي كان يحوي مساجين من أفراد الجيش الإيراني، وهناك سلمني الحراس لإدارة السجن ومضوا لحال سبيلهم...

عندها أودعني مسؤولي إدارة السجن بزنزانة انفرادية طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف، من غير وجود لشباك أو قضبان حديدية على بابها السميك، وهي بوصفها كانت أقرب أن تكون مخزنًا محكم الجوانب على أن تكون زنزانة للحبس، وكان الوقت حينها عصرًا وأنا لم أذق نتفة صغيرة من أي طعام منذ مساء اليوم السابق بمريوان، ولأني كنت مرهقًا من رحلة السفر إلى سنندج ونهوضي المبكر بذلك الصباح، ناهيك عن ما لقيته من رعب صامت على يد العقيد توكان، فقد رميت بنفسي أرضًا جزعًا وحزنًا ويأسًا على ذلك التطور الخطير والمتسارع بمجرى الأحداث، التي أخذت منحى آخر بعيد جدًا عن ما تصورته قد يحدث لي بسنندج، بعد أن تسوفت أسباب تلك التهمة الكيدية التي سببها لي ذلك الپاسدار اللعين صادق، وأصبحت جاسوسًا من دولة معادية مطلوب منه الكشف عن أسماء خليته التجسسية بذلك البلد اللعين...

بعد غفوة نوم عميقة ذهبت خلالها إلى ماضي حياتي السابقة، في رحاب أهلي وأصحابي وأقاربي وما كنت عليه من حياة مستقرة وطبيعية؛ استيقظت منها على مناداة أحد الجنود بباب الزنزانة وهو يأمرني بالنهوض ليقتادني إلى

زنزانة أخرى، فتح بابها ودفع بي إلى الداخل ثم أغلق الباب خلفي، لأجد نفسي وسط ساحة مستطيلة وكبيرة بجدارها العالي وسقفها المكشوف الذي رُكبت عليه شبكة من الأسلاك الشائكة، تمكنت أن أرى السماء من خلالها بوقت الغروب.

توقفت أتأمل ذلك المكان حتى رأيت بابًا مفتوحًا بأخر تلك الساحة المكشوفة، فقصدته ووقفت عند عتبته أتأمل ما في الداخل، وجدت مجموعة كبيرة من المساجين يستلقوا على أسرة نومهم ذات الطابقين، تفاجئوا بدورهم من وجودي وأنا بشكلي الغريب عنهم، فنادى علي أحدهم وقد علمت بعدها أنه كان أقدم سجين فيهم، والأقدم في الفارسية يدعى أرشد، وهو همزة الوصل بين السجناء والإدارة، وكان أولئك المساجين هم جنود من الجيش الإيراني، وهم يقضوا مدة محكوميتهم كل بحسب التهمة التي وجهت له، وأغلب التهم كانت هي جريمة الهروب من الخدمة العسكرية..

تقدمت بخطواتي لذلك الأرشد وسلمت عليه بالفارسية التي تعلمت القليل من مفردات الحديث بها، فسألني:

– من تكون؟ وماذا تفعل هنا؟

– أنا پيشمرگة من جماعة البارزاني (مه ن موبارز بورتزاني).

– من العراق؟ (أز عيراق).

– نعم (باليه)...

فسألني أحدهم:

– هل تعرف اللغة العربية؟ (عربي بلدي).

فقلت بالعربية:

– نعم أنا أستطيع التكلم باللغة العربية كما ترى...

فقال بالعربية أيضًا:

– اسمي مسعود، وأنا تعلمت العربية أثناء فترة عملي بدولة الإمارات التي ذهبت إليها عن طريق التهريب وبقيت بها لعامين.

فقلت:

– أهلاً وسهلاً..

– هل أنت جائع؟

– جدًا...

– خذ هذا الصحن لأن وقت توزيع الطعام سيكون بعد قليل..

ذهبت لأجد لي مكانًا أجلس فيه، وعندئذ اكتملت صورة المشهد لدي، فتلك الساحة المكشوفة بسياجها العالي وسقفها المغطى بالأسلاك الشائكة؛ كانت من أجل أولئك السجناء إذا ما رغب أحدهم أن يتمشى أو يتشمس فيها بأي وقت يشاء، وهذا المكان الذي هم فيه مستلقون على أسرتهم ذات الطابقين هو مكان استراحتهم ونومهم، وبابه يغلقوه أو يفتحوه بحسب رغبتهم متى ما أرادوا، لأن باب سجنهم هي التي أدخلني منها الحارس إلى تلك الساحة المستطيلة..

بعد فترة قصيرة أدخل حراس السجن قدرًا كبيرًا فيه طعام العشاء إلى ساحة السجن، فأمر أرشد الزنزانة وهو يشمر عن ذراعيه اللتين ملأهما بالوشم، اثنين من الجنود المساجين لغرض إحضار قدر الطعام، ثم باشر بعدها بتوزيع الطعام، على المساجين بمعرفته وعلى مزاجه الخاص، بإعطاء الكمية التي هو يقدرها لكل واحد فيهم دون أن يعترض أحد منهم، وكان برغل مطبوخ بعناية مع قطعة صغيرة من اللحم لكل سجين، وعندما جاء دوري أعطاني حصة مضاعفة باعتباري كنت ضيفًا جديدًا على زنزانتهم، فأكلت حتى شبعت وحمدت الله كثيرًا على نعمته بتيسير رزقي، وفضله علي بإدخاله الرحمة بقلوب من

كان باستطاعتهم إهانتي أو إيذائي، ونحن بأجواء الحرب المشحونة بكل أسباب القتل والدمار بين الطرفين العراقي والإيراني، إضافة لذلك وجدت لنفسي مأوى أنام فيه وأرتاح عليه بإحدى الأسرة.

بعدها تعرفت على باقي المساجين الذين كان عددهم يتراوح بحدود ٢٠ فرد، وبعد أن دفع الفضول بجميع الموجودين لمعرفة أسباب سجني؛ أخبرتهم بكل ما حصل معي بمريوان، وكنت حريصًا أن لا أخبرهم بأنني كنت أحد منتسبي الجيش العراقي، مكتفيًا فقط بذكر إنني من جماعة البرزاني، فاستشاطوا غضبًا على ذلك الپاسدار اللعين صادق، وأخذوا بسب وشتم جميع الملالي واليوم الذي جاء فيه الخميني عائدًا لإيران... فتعجبت من قولهم وتأكدت من حجم الهوة بين قطاعات هذا الشعب، ودرجة بغض أفراد الجيش الإيراني لقوات الپاسداران.

في الأيام التالية وبجلسة حوار مع مسعود الجندي الإيراني الذي كان يتكلم العربية، حكيت له عن زيارتي السابقة لإيران بعام ١٩٦٨ بصحبة عائلتي بغرض السياحة، وكيف كانت أحوال الناس في إيران آنذاك حيث الرفاهية والترف والخلق الحسن الذي لمسناه عند كل من تعاملنا معهم، وبين ما وجدته الآن من اختلاف كبير نحو السيء بعد مرور أربعة عشر عامًا، مبينًا له استغرابي من التغيير الجوهري بطباع الناس، فحينها عندما كنا نتكلم مع أحدهم نراه بشوشًا ومرحًا ومتعاونًا، والأن أصبحت أراهم وكأن الشرار يتطاير من عيون أغلب من تعاملت معهم، فما سر هذا الانقلاب باعتقادك؟!

– إنهم الملالي بدون شك، فهم من زرع الأحقاد بين الناس بحجة أن هناك من يتآمر على الثورة فأحذروهم، ويدهم الضاربة على رؤوس الناس هم تلك الثلة التي تربت على يد الملالي من أبناء المتعة الذين يجهلوا من هم أبائهم وأمهاتهم،

وهم الآن ينتقمون من المجتمع الذي رفضهم ونبذهم طيلة حياتهم، وأصبحوا يكرهون كل شخص ذو جاه وحسب ونسب من أشراف المجتمع، بعد أن أصبحوا من علية القوم وتبوؤا مناصب عليا في الدولة وقوات الپاسداران، من خلال تنفيذهم لأجندة انتقامية باسم الثورة والدين، ولم يكتفوا بهذا وحسب، فقد عملوا على تصدير ثورتهم إلى العراق من أجل إشغال الناس بالحرب بغرض المحافظة على كراسيهم ومنافعهم، والحرب الدائرة الآن من صنع أياديهم الآثمة.. فهل لديك أية فكرة عن وقت انتهائها بحسب رأيك؟

فقلت متملصًا من الجواب:

– الله أعلم.

– هذا غير صحيح.

– كيف؟

– إن العراق وافق رسميًا على وقف الحرب، ولكن الملالي لم يرق لهم إيقافها، وهذا يعني أن إيقاف نزيف الدم مرهون بإرادتهم ورغبتهم على الاستمرار أو التوقف، وبالنتيجة فهم خير من يعلم متى ستنتهي هذه الحرب اللعينة..

فقلت بعد أن خرجت عن صمتي من أجل أن أسمع منه المزيد عما كان يحدث بإيران:

– إنك يا أخي تتكلم بسوء عن رجال دين اختارهم الشعب الإيراني بملئ إرادته، وضحى في سبيل ذلك بالكثير من أبنائه.. فماذا تقول بهذا الصدد؟

– سأحكي لك قصة قصيرة من التراث الفارسي، ومنها ستفهم حقيقة الأمر لأنها تنطبق بالتمام على ما نتحدث به: يُحكى أنه كان هناك ملكًا قد خرج للصيد بمعية حاشيته، وأثناء توغله بأحراش الغابة انغرست بيده ٢١ شوكة، الأمر الذي أدى به لأن يقطع رحلته ويعود إلى قصره ويستدعي طبيبه الخاص من

أجل نزع تلك الأشواك من يده، وعندما أمسك الطبيب بإحدى تلك الأشواك لكي يسحبها من يده، اشتاط الملك ألمًا وصرخ بطبيبه من أجل الكف عن تلك المحاولة، وبقي الملك على ذلك الحال من الألم لثلاثة أيام، لم يذق فيها طعمًا للنوم، حتى أصابه الإعياء والإرهاق وأخذته غفوة قصيرة وهو جالس على كرسيه، وعندها جاءت أميرة القصر وأخذت بانتزاع تلك الأشواك واحدة تلو الأخرى برقة وتأني لكي لا يستفيق الملك من غفوته ويعود لغضبه، وكانت كلما تنتزع شوكة من يده تضعها على منديل أبيض بجوار الملك، حتى تمكنت من أن تنتزع عشرون شوكة ولم يبقَ لها إلا أن تنتزع الشوكة الأخيرة، والملك لازال بغفوته العميقة لا يشعر بأي ألم بيده، وأثناء تلك العملية الدقيقة كانت خادمة الأميرة تراقب فقط من غير أن تتدخل بشيء، حتى أخذها الفضول ومدت يدها وانتزعت الشوكة الأخيرة بعنف ولا مبالاة، الأمر الذي أدى بالملك لشعوره بالألم وجعله يستفيق غاضبًا، ولكنه سرعان ما هدأت نفسه عندما نظر ليده ووجدها خالية من الأشواك، ثم نظر إلى جانبه فرأى الأشواك العشرين وهي مسطرة على المنديل الأبيض، ثم تحول بنظره للأميرة وخادمتها فرأى الشوكة الأخيرة بيد الخادمة، فظن أنها هي من انتزع كل الأشواك من يده وخلصته من ذلك الأرق الذي دام لثلاثة أيام من الألم، وعندها فرح متناسيًا الألم الذي جعله يصحى وأمر أن تصبح تلك الخادمة هي الأميرة، والأميرة الحقيقية تصبح خادمة لها لأنها تكاسلت ولم تساعده بمحنته بحسب ظنه، وهي التي قامت بالعمل كله.. إنها يا أخي قصة مطابقة لما حصل بإيران عام ١٩٧٩، فالشعب الإيراني بكل شرائحه كان قد ناضل من أجل إسقاط الشاهنشاهية التي كانت تسرق قوت الشعب على مدى سنين حكمها الطويل لإيران، والشعب قدم خيرة أبنائه ليكونوا فداءًا من أجل الحرية، حتى سلط الإعلام الغربي الأضواء على الخميني بمكان إقامته بفرنسا، وهو يوحي أنه يحمل الشوكة الواحدة والعشرين

بيده، وبذلك استولى على الثورة وأصبح على رأس السلطة بعد أن أسقط الشعب الحكم الشاهنشاهي... وتأتي أنت يا أخي وتقول لي إننا قد اخترناهم! وهو أمر بات شائعًا ولكنه عاري عن الصحة..

عندما انتهى مسعود من سرده لتلك الحكاية، وبعد سماعي لذلك الدرس البليغ الذي استوعبت كل أبعاده، تفاديت متعمدًا التصريح برأيي الحقيقي وقلت له:

– إنها حكاية ممتعة حقًا وهي تذكرني بحكايات جدتي عندما كنا صغارًا عن الملوك وما كان من أمرهم سابق الزمان..

فقال متذمرًا وهو يهز برأسه:

– أسأل الله أن يسامحك يا أخي..

وفي مناسبة أخرى ومن غير أن ألفت الانتباه طلبت من صاحبي مسعود أن يحكي لي عن طبيعة النهج الديني السائد بإيران، من أجل الاستفادة بتكوين فكرة عن التركيبة النفسية لشخصية هؤلاء الملالي، مدعيًا أني جاهل بأمور الدين الإسلامي وبودي الاستيضاح فقط! فقال:

– سأحكي لك الحقيقة ولكن لا تسخر لأنها مأساة وكارثة إنسانية حلت علينا!

– أعاهدك على ذلك..

فكلمني عن أمور عجيبة وطقوس غريبة لم أسمع بمثلها أنا وغيري من العراقيين بتلك الفترة، وهي اليوم معروفة ومكشوفة ومنتشرة على الفضائيات الطائفية بالقول والتطبيق في العراق، بعد أن انتقلت إلينا من إيران، وطبعًا هي بمجملها طارئة على الدين الإسلامي المحمدي السمح الذي يعرفه ويطبق تعاليمه أكثر من مليار مسلم، وكذلك نفس الشيء على التشيع العربي الجعفري الذي لم يخرج عن السنة النبوية والقرآن الكريم، باستثناء ثلة من الذين انتقلوا ليتبعوا التشيع الفارسي الصفوي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، الذي هو أشبه

بالدين الجديد الذي يختلف مع الإسلام الذي نعرفه بكل شيء ويتشابه معه إلا بالاسم فقط لا غير.

بعدها استرسل صاحبي مسعود وأخذ يسرد لي بعض الشواهد على كلامه بخصوص الممارسات السيئة التي تحصل بإيران باسم الدين، وقال:

– ومثال ذلك أن بعضهم عندما يذهب لزيارة المراقد الدينية بمشهد وقم، فإنه لا يمانع من اصطحاب أمه التي ترغب بالذهاب معه بقصد أن تستمتع حتى لو كانت كبيرة في السن من خلال معاشرة بعض الرجال هناك، على طريقة زواج المتعة المرهون بفترة زمنية يتم تحديدها بليلة أو ليلتين، أو بعدد من الليالي التي تقضيها خلال فترة الزيارة، باعتباره أمر غير مكروه وهو من الدين، ولا حياء في الدين كما هم يقولون، فهل هذا التصرف مقبول عندكم وهل هو موجود ومباح بدينكم الإسلامي في العراق؟! ناهيك عن أن بعض الملالي الذين كانوا في العهود السابقة يتجولوا بين القرى والأرياف وضواحي المدن بُغية إرشاد الناس على طريقتهم، وبعد أن ينتهوا من سرد كلامهم الترهات كان بعض الأهالي يكافئوهم بتقديم أصغر بناتهم من البكارى لهم، لكي يتبركوا بهذا المعمم أو ذاك الدجال على طريقة زواج المتعة لليلة واحدة وبدون مقابل.

هذا ما شرحه لي صاحبي مسعود، وهو كما ذكرت سلفًا كان أحد الجنود الإيرانيين المحبوسين معي بزنزانة واحدة، وكان على درجة من الوعي والثقافة، ويتكلم معي باللغة العربية التي تعلمها أثناء عمله السابق بدولة الإمارات، واستمر بسرده وقال:

– إن إحدى القرى النائية قديمًا في إيران، كانت تعاني من حدوث الكوارث الطبيعية بشكل غير طبيعي، وتصادف أن زارها أحد الغرباء من رجال الله الصالحين الذي مرَّ بها وكانت على ذلك الحال، فتوقفت بالصدفة كل تلك المظاهر

المصحوبة بالمطر والبرق والرعد الذي كان يخيف سكان تلك القرية النائية، وحينها هدأت نفوس الناس واعتقدوا أنها بركة من ذلك الرجل الصالح الذي دخل لقريتهم، وبعد يومين من استراحة ذلك الرجل الصالح الذي تقدم بالشكر لملالي القرية بضيافتهم له، مستأذنًا منهم بالمغادرة لإتمام رحلة سفره والعودة لدياره، فقالوا له متوسلين: ابقَ معنا يا مولانا لأنك رجل مبارك جلبت لنا الأمان والطمأنينة بقدومك علينا، فاعتذر الرجل عن تلبية مطلبهم بكل أدب، فقالوا له، لكننا يا مولانا لا نستطيع التفريط بك والسماح لك بالمغادرة، فقال: كيف بإمكانكم أن تمنعوني من المغادرة ولدي عائلتي بانتظاري؟! فتقدم أحدهم نحوه بعد أن شمر عن ساعديه وأغمد خنجره بقلب ذلك الرجل الطيب وهو يردد قائلاً هكذا ستبقى معنا إلى الأبد لنتبرك بك يا مولانا، فمات الرجل المسكين بلحظتها، وتجمع الملالي من حوله بعد أن اخفوا علامات تلك الجريمة البشعة، وبكوا عليه قليلاً ثم أشاعوا بين الناس خبر وفاته المفاجئ الذي روجوا له على أنها هبة من الله لقريتهم البائسة، ثم جمعوا الأموال لكي يبنوا له مرقدًا يزوره كل من يسعى لطلب البركة وتقديم النذور لحل العقد المستعصية، من خلال تقديم القرابين التي ستنزل بجيوب من قتله من ملالي القرية...

ثم أضاف مسعود قائلاً:

- ولذلك فجوهر الصراع بين الملالي بإيران سابقًا وحاليًا هو من أجل الاستحواذ على المال الذي يجنوه من زيارة الناس للمراقد، إضافة لجني خُمس الدخل السنوي من مقلديهم، فما بالك وقد أصبحت الغنيمة هي ميزانية دولة كبيرة مثل إيران بحقولها النفطية وما شابه من خيرات وما أكثرها؟!

فقلت بشكل عفوي:

- هكذا الموضوع إذًا؟

– نعم.. وأظنك بدأت تفهم ما أريد أن أوصله لك..

فقلت في نفسي:" أحمد الله أنه لا يوجد لدينا أمثال هؤلاء الملالي في العراق ليحكمونا"، ولم يخطر على بالي مطلقًا حتى وبأتعس كوابيس أحلامي، أن تلاميذ هؤلاء الملالي الإيرانية هم من سيحكموا العراق في ظل الاحتلال الأمريكي الذي تحالفوا معه بشكل مخزي، والاحتلال الأمريكي بدوره عاملهم بكل احتقار واستخفاف، فلم يرتقوا من خلاله لينالوا صفة الحليف، بل لصفة الخادم الوضيع المطيع الذي لا يملك سوى تنفيذ ما يطلب منه أسياده.. على أية حال دوام الحال من المحال، والتاريخ سجل وسيبقى يسجل كل مآثر الشعوب وبطولاتهم من ناحية، ومخازي وانحطاط ثلة الخونة من ناحية أخرى، في هذه الحياة التي لم تدم للسابقين ولن تدوم للاحقين..

ورجوعًا لما كان من أمري خلال تلك الفترة القصيرة من تواجدي بتلك الزنزانة، تعرفت على أحوال باقي المساجين، واطلعت على أسباب سجن كل واحد منهم، فوجدت أن أغلبها كانت محصورة بأمرين، أولها بسبب التغيب أو التخلف عن الخدمة العسكرية الإلزامية، وثانيهما بسبب تعاطي المخدرات، وهي ظاهرة شائعة وممنوعة بنفس الوقت، ومنهم كان ذلك السجين الأقدم الذي وشَم يديه وكان يدعي أنه من ممارسي الزورخانة، وهي رياضة شعبية قديمة في إيران..

ومن أجل أن أحتوي كل من كان بتلك الزنزانة من الجنود الإيرانيين؛ شاركتهم بألعابهم التي كانوا يمارسوها بعد فترة العشاء من أجل التسلية وتمضية الوقت، ومنها لعبة المحيبس على الطريقة الإيرانية، وفي إحدى المرات شاركتهم بلعبة المصارعة بلوي الأذرع، وفزت عليهم الواحد تلو الآخر حتى جاء دور سجينهم الأقدم، فتحرجت من ذلك وامتنعت عن مصارعته لأني كنت واثقًا من فوزي

عليه وبالتالي فإنه لن يتقبل الهزيمة بروح رياضية ومن المؤكد أنه سيحقد علي لأنه سيخسر هيبته وسلطانه على باقي المساجين، باعتباره زورخنجي كما كان يحلو له عندما يصف نفسه، وهو صاحب فضل علي لأنه احترمني منذ دخولي عليهم بتلك الزنزانة.

وبعد إلحاح منه لم أجد مفرًا من منازلته فهزمته بسهولة لأنه كان يصعب علي أن أجعله يغلبني من باب المجاملة، بسبب كونه حشاش ومدمن على المخدرات، وأنا كنت شابًا مفتول العضلات نتيجة ممارستي السابقة لرفع الأثقال والكمال الجسماني، فغضب مني كما توقعت بحجة أني قد أخذته على حين غرة، فقلت مطيبًا خاطره: دعنا لا نحتسب تلك النتيجة ولنتصارع مرة أخرى، فمكنته من لوي ذراعي وخسرت نفسي من أجل أن يفور هو، لأني لم أكن أريده أن يغضب مني لأي سبب كان، لأن الرجل كان يحترمني ويعاملني معاملة حسنة منذ دخولي عليهم، وقد كان بإمكانه إزعاجي – إن لم يكن إهانتي – صباح مساء من غير أن يحاسبه أحد، بالرغم من كونه سجينًا معي بنفس الزنزانة، وبالتالي فهو جندي إيراني وأنا أعتبر عدو عراقي، ورحم الله من عرف قدر نفسه. وعلى أثر فوزه نفش الرجل ريشه وهو يتمشى متبخترًا ومزهوًا بنشوة انتصاره المزعوم، وكنت حينها وأنا أشاهده لا أدري هل أضحك على تلك المهزلة التي وجدت نفسي فيها، وكأنها أضغاث أحلام من تلك التي تراود الناس بفراشهم الدافئ..

في ذلك المساء على وجه التحديد؛ أخبرنا أحد حراس السجن الذين كنا نادرًا ما نراهم باستثناء وقت جلبهم للطعام، أنني سوف أغادر الزنزانة بصباح اليوم التالي، فتهيأت للرحيل عن أولئك الجنود الإيرانيين الذين لم ألمس منهم أي سوء يذكر بحقي، دون أن أعلم إلى أين المسير يا ترى بهذه المرة، وفي

الصباح خرجت من تلك الزنزانة بعد أن ودعني كل من كان فيها بشكل ودي حميم لا زلت أذكره لهم بطيب.

ثم اقتادني الحراس الذين عاملوني بقسوة كالمرة السابقة وكأنهم قد ألقوا القبض علي للتو بإحدى ساحات الحرب، ولكني بأسلوبي الذي انتهجته واعتبرته ناجحًا عند التعامل مع مثل تلك الحالات؛ كنت قادرًا على جعلهم يغيروا من تلك الأساليب التعسفية التي عادة ما ترافق المسيرة مع سجين كان متهمًا بالتجسس على بلادهم، وذلك بأن أكون متعاونًا مع سجاني أثناء اقتياده لي، وكذلك عدم سؤالهم المتكرر، إضافة لاحترامهم الذي سينعكس إيجابيًا ويجبرهم على احترامي، وهذا ما كنت أحرص عليه على الدوام بكل مكان كنت أحل فيه من تلك الأماكن التي أخذوني إليها مخفورًا، فكرامتي كانت تحتل الدرجة الأولى من اهتماماتي الشعور بالجوع أو النوم في العراء، أوحتى تعرضي للموت...

اقتادني حراسي الجدد إلى كراج السفريات بسنندج، وهناك علمت وجهة سفرنا إلى أين ستكون بهذه المرة، لأننا ركبنا الحافلة المتجهة للعاصمة طهران، واسم طهران كان بالنسبة لي مرعبًا لارتباطه بداخل عقلي بالإهانة التي هي أتعس من الموت بنظري، باعتبار أن طهران كانت هي المحطة الأخيرة لي، لأن أقفاص الأسرى العراقيين كانت هناك، وتلك معلومة أكدها ذلك الپاسدار اللعين صادق وهو يقول لممثل الحزب الديمقراطي بمريوان المدعو حمه سور حسين، الذي ترجاه ألا يقتلني بعد أن سلمني إليه صاغرًا ومطيعًا: أن أخر المطاف بعد التحقيق معه سيكون بقفص الأسرى العراقيين بطهران وليس القتل، والقتل كان أهون من الأسر بشهادة كل الأسرى العراقيين الذين التقيت بهم لاحقًا بطهران.. فماذا كان يجب علي أن أفعل وقتها؟ هل أتوسل لهم من أجل أن يقتلوني؟! الجواب هو كلا، لأني لم أتوسل لأحد بكل حياتي ولن أفعل ذلك ما حييت..

وكالعادة وكما حصل في التسفير الأول من مريوان إلى سنندج، فإن الطريق مهما كان بعيدًا أو قريبًا فإنه كان يتوجب علي الصيام الإجباري، على الرغم من أن الحافلة التي كانت تقلنا تتوقف لمرات عديدة بمطاعم واستراحات منتشرة على طول الطريق، بسبب عدم امتلاكي للنقود بغرض شراء الطعام أو السجائر، التي كانت هي السلوى الوحيدة لي برحلتي مع العذاب، وأصبحت بعدها هي النقمة الوحيدة لي أثناء تسفيري من مكان لآخر، لأني أثناء تواجدي في الزنازين التي مررت بها؛ كان هناك من يعطف على حالي ويقدمها لي من باب الرحمة الإنسانية، ولو كنت قد استرجعت نقودي التي كنت قد وضعتها كأمانة عند مضيفي خال صديقي شريف كچل لما كنت سأحتاج لأحد، علمًا أن الفرصة كانت متاحة له أن يرجع لي نقودي أثناء تواجدي بزنزانة معلومة بوسط مريوان، ولكنه لم يفعل لأسباب كنت أجهلها، وبالتأكيد السبب لم يكن هو نكران الأمانة، لأن الرجل والشهادة لله كان من الأخيار وليس من الرعاع..

أخيرًا وصلنا إلى طهران بوقت الغروب وكنا قد تركنا سنندج منذ الصباح، ولم أكن أعلم كم من الوقت قد استغرقنا بتلك الرحلة حتى وصلنا لطهران لأن حساب الزمن والأيام كان معدومًا لدي، بعد أن أصبحت خارج المعرفة بأي شيء كان يحدث خارج زنزانتي.

OpenKan.com